الكنداكة.. ساورا مملكة الجبل
الجزء الثاني

ثلاثية لا وطن في الحنين
"ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز"

أحمد ضحية

الكنداكـة.. سـاورا مملكـة الجبـل
الجـزء الثـاني

ثلاثية لا وطن في الحنين
"ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز"

إهداء

إلى كل الذين أحبهم

معجم الرواية

المفـردات الـواردة باللغـة القديمـة لقبيلـة الفـور، وهـي مفـردات لمعـان وأسـماء وألقـاب في التراتبيـة الإداريـة في سـلطنات الفـور القديمـة:

آري: السلطان العظيم. أو الملك العظيم.

كنفـوس: قـماش تلـف بـه المـرأة ردفيهـا بطريقـة معينـة، يعـاد الثـوب الداخـلي للمـرأة، حديثـا.

كيرا: هو اسم خيرة العربي نفسه.

سولونق أو صولونج: العرّبي.

سورنق: سيد الأرض.

إياكورِّيّ: الأم القوِّية، الزوجة الأولى للسلطان.

شرتايـات: ج. شرتـاي. وهـو منصِّـب إداري بمعنـى (حاكـم). رئيـس مقاطعـة. شرتايـة: مقاطعـة.

دمليج: زعيم منطقة.

إياباسي: أخت السلطان أو الأم الملكية.

الكّكّر : كرسي العرش. كرسي السلطان.

الفواشر: ج. فاشر، معسكر ملكي.

الكامنِّي: سلطان الظِّلْ.

كتِركوا: خصِّي السلطان.

الأورنانق: قائد الجند الشباب.

سومنق: خلوى بمعنى مدرسة لتعليم الأطفال.

سـواجن: هـي مدينـة سـواكن المينـاء عـلى البحـر الأحمـر شرق السـودان. تقـول الأسـطورة أن سـليمان سـجن فيهـا الجـنّ العصـاة؛ وحـرِّف الإسـم الى سـواكن بمـرور الوقـت.

توقوينق: رئيس الطقوس الدينية.

سارنقا: قائد الفرسان الذين يحاربون بالسيف "سار"

العظيم (آري) تذّكر أنك ستموت يوما!

1

تساءلت (أعجوبة) وهي تسحب يدها، من يد العبد (النمرود) في عنف:

"أين سأجلس في هذا الضّيق؟!"

مدّ العملاق الصغير، يده يتحسس جسدها؛ الذي يقف فوقه، وجذبها الى حِجرِّه. وهو يقول:

"ها هنا ستجلِسين يا سيدتي"

فمانعته قليلاً، ثم استكانت كقطة أليفة، بعد تملمُل عنيد!

أشتدّت العاصفة وبدأت السماء ترعد، انكمشت أعجوبة في حجرِّه، فشد إزارها!

وشيئا فشيئا نفى جسمها، إحساسها بغربّة حجر النمرود عنها!

هدأت العاصفة، وتحوّل الجوّ، إلى برودة ثلجيّة صاقعة.. غاصت أعجوبة في حجر النمرود، الذي شد (كنفوسها!).. أشتد الرّعد.. فتوغل النمرود..

"كانت السماء تمطِّر، والبرق يلمع، والرّعد يصُّم الآذان!"

قالت أعجوبة، لإبنتها (الكنداكة)، قبل أن تغيب إلى الأبد، فيما كانت كل ذكرياتها، مع طفلتها (سابا) وتوأمها (الكنداكة)، قد تحولت منذ وقت طويل، إلى مجرد ذكرى بعيدة، في خاطر ابنتيها، اللتان على الطرف الآخر، من المدى الفاصل بينهما كلحظتين هاربتين في الوقت والمكان!

محض ذكرى بعيدة لغرباء، كأن لم تجمعهم علاقة دم:

"اغفري لي كنداكة، واسألي لي أبوك وتوأمك الغفران"

كانت تلك آخر الكلمات، التي تتذكرها الكنداكة، كلما عبرت بخاطرها، حكاية أمها أعجوبة مع عبدها النّمرود.. الذي أهداه إياها إبن عمها الملك الشرّيف!

فأخذت تصطحبه معها منذ الصِّغر، الى كل مكان تطأه قدماها!

حيث يقف النمرود بعيدا يحرِّسها ورفيقاتها، وهنّ يلهون في الوادي المفضي، الى جبال البحر الملون، الى أن دهمتهم ذات يوم، وهم في سحابة نزهتهم، رِّيح عاصفة.

فأسرّع النّمرود يمسك بيدها، ومضى يخبئها وشقيقتيها (هند ودعد) ورفيقاتها، في مغّارّة أسفل تل صّخري، محاصر بجرف الوادي!

امتلأت بهم المغّارّة، التي ضاعف ظلام العاصفة من وحشتها، فلم يترك النّمرود يدها أبداً!

وفيما تطرأ مثل هذه الذكريات، على خاطر الكنداكة، كانت توأمها سابا، على الطرف الآخر، من اللحظة ذاتها، قد استحالت إلى بوح روح هائمة، تحلق فوق ساحة مهرجان الحصاد.. تراقب ابنتها (كيرا) على ظهر حصانها الأبيض، الذي أهدته إياها، صديقاتها جنيات (جبل الميدوب)!

شدت (كيرا) لجام فرسها، وهتفت في الناس:

"هل من منازل؟"

فلم يجرؤ أحد من عامة الشعب، على التقدّم إليها. كانت أنفاس الناس لا تزال محبوسة، وهي تترقب في الصفوف.

وعندما كادت كيرا تنصرف، دون أن يتقدم أحد لمبارزتها، خرج من بين الصفوف

(سـولونق) ابـن الراعـي العجـوز دورة، وتقـدم منهـا بخطـى واثقـة، وهـو يقـول في تصميـم:

"أنا"

أشهر (سولونق) سيفه. فأشهرت سيفها. و تلاحما..

وأخـذا يكـران ويفـران.. يلتحـمان و يتراجعـان.. والنـاس.. كل النـاس، بـين الدهشـة والذهـول، مـن وقائـع هـذا اليـوم الغريـب! الـذي لم يمـر كمثلـه يـوم، في تاريـخ سـاورا أو مملكـة الجبـل والـوادي!

كانـا يتبـارزان بـضراوة. يقعـان ويقومـان، دون أن يتمكـن أحدهـما مـن إصابـة الآخـر بخـدش!

والجمـوع المحتشـدة بكيانهـا كلـه، نسـيت كل شيء، عدا هـذان الجبلان الجبـاران، اللـذان يتزحزحـان تجـاه بعضهما، فيصطدمـان و ينفكان!

قبـل هـذه اللحظـة، بوقـت طويـل، وفي الصبـاح التـالي لإنتحـار أمهـا (سـابا) فوجـيء النـاس بجسـم كالـرُّخ، يهـوِّي مـن قمـة جبـل الكبـش.. هـوّى. هـوّى.. وسـقط عـلى أرض الـوادي. اقتربـوا منـه. تبينـوا فيـه أحـد الدعـاة المحبوبـين للنـاس.

فيـما كانـت الذاكـرة لحظتهـا، تسـحب شـقيقها (دالي) إلى الـوراء، لاهثـة، متعبـة.. وهـو يـرى والـده سـورنق لأول مـرة يبـكي..

كان يبكي وهو يرى نفسه يلهو مع سابا في (جبل الميدوب)..

وهـما يتسـلقان الأشـجار والصخـور معـا، ويتنقـلان بينهـا بخفـة القـرود..

وهـو في النـزع الأخـير عـلى حجـر ابنتـه كـيرا، تـراءت لـه وقائـع حياتـه مـع سـابا، صديقـة الجنيـات في ادق تفاصيلهـا.. تـراءى لـه.. شـبابهما وذكرياتهـما معـا! ولفـظ أنفاسـه، وهـو يـرى نفسـه عـلى احضانهـا، في

تلـك اللحظـة البعيـدة! عندمـا أمسـك بكنفوسـها الجلـدي القديـم في يـده. وتفـرّس فيـه. فهاجـه التـوق والوجـد، وتدفقـت في عروقـه حـرّق، كتلـك التـي تندفـع مـن جـوف جبـل الميـدوب!

في ذلـك الوقـت كانـت سـابا؛ قـد بـدأت تألفـه وتعتـاد عليـه. فعـنّ لـه أن يقـترّب أكـثر، مـن تلـك الرؤيـا التـي تسـكنه.. رؤيـا العـرش خلـف طيفهـا الغامـض!

دنـا منهـا وهـما ينهيـان حماميهـما، في ذلـك الـوادي. أراد أن يتوحـد معهـا، خبّـت الألفـة في عيونهـا، وانبعـث محلهـا شرّر. كـشرّت عـن اللبـوة داخلهـا. نظـر في أعـماق عينيهـا بقـوّة، فتنمـرّت أكـثر.

دنـا منهـا. فمـدّت يديهـا كحيـوان كاسر، لتنتـزع خاصِّرتـه، فتراجـع بزاويـة حـادة، أطاحـت بزراعيهـا في الهـواء، أختـل توازنهـا، فباغتهـا مـن الخلـف، وأحتضنهـا مقيـدا يديهـا الى ظهرهـا، وشـابكا سـاقيه في سـاقيها!

أخـذت تحـرّك رأسـها وقدميهـا في عنـفٍ، تشـقّقت لـه تربـة الـوادي الرمليـة الرطبـة، وهـي تـزأر بوحشـية جعلـت الطيـور، التـي في أعـلا التّـل ترتـاع وتهـرب مـن وكناتهـا، لا تلـوي عـلى شيء!

ظـل سـورّنق ممسـكا بسـابا، إلى أن خـارت قوّاهـا، فكفـت عـن المقاومـة، فتركهـا!

وقبـل أن تتهـاوّى كقلعـة مهدّمـة، سـندها برّفـق وأتكأهـا عـلى حافـة الـوادي، وأبتعـد عنهـا قليـلا ينظـر إليهـا.. حدقـت فيـه بدهشـة، وغابـت بعيـدا.. بعيـدا...

بعـد ذلـك بسـنوات قليلـة، أنجبـت لـه دالي، ثـم كـيرا التـي تشرّبـت منـذ طفولتهـا، بحكايـا الاسـلاف مـن العجـوز دورّة، وتعلمـت الحـرف مـن سـورّنق؛ وأعتـادت مـع دالي عـلى فنـون القتـال!

شـعورها بالإنحـدار مـن جبـل الميـدوب، وعـروق الملـح في مالحـة، وصـوى سـاري الطرِّيـق الصّحـراوي والفلـوات، ونجـوم السـماء والـصّي، وجنيـات الجبـل: شـكل وجدانهـا، حيـث يثـوي عالمهـا الغامـض و تنهـض ذكرياتهـا، لتصبـح الذكـرى هـي، وهـي الذكـرى ذاتهـا!

هـذا العـالم الغامـض، الـذي أحـاط بجبـل الميـدوب، مدهـا بأسـباب وجودهـا، وشـكلها لتصبـح بشـكيمة لا تلـين، وعزيمـة تفتـت الصخـر..

نشـأت كـيرا متوحشـة كأمهـا سـابا، صديقـة الجنِّيـات والوحوش، يسـمع بهـا النـاس في الـوادي، يعرفونهـا ولا يرونهـا، وعندما شـكّ السـهم المسـموم، فـؤاد سـورِّنق هتـف أول مـا هتـف:

"كيرا اااا"

فاختلطـت المخـاوف والأحـزان، في عيـون النـاس بالدهشـة، وأحسـوا بقيامتهـم، أقـرب مـن حبـل الوريـد!

كانـت كـيرا لحظتهـا، تصفـف شـعرها الملـكي، وتعـد نفسـها للخـروج، عندمـا تـرددت أصـداء صرخـة والدهـا في فضـاء الـوادي، فخرجـت مذعورة، اصطدمـت في طريقهـا بالخصيـان، والحـرّس يحملونـه عـلى اكتافهـم، والثـوب الـذي التـف بـه، تـضرّج بـدمِ أحمّـر قـانٍ.

التف الأهالى حول القصر! وعلا الهمس:

"غدروا بك (آري سورِّنق!) إنه بييه!.. الخائن بييه!"

2

قبل عشرات السنوات من مقتل سورنق، مرت مملكة ساورا بوقائع شبيهة، انتهت بمقتل آريها!

وقتها، لم تكن الخيانة هي السبب، بل الغزاة.. الذين انسحبوا، بعد أن نهبوا ما استطاعوا. خشية أن يصيبهم هم أيضا الوباء الذي أنهك ساورا.

كان الوباء كأنه يتحالف، مع الدمار الذي خلفته الحرب! إذ تفشى بسرعة كبيرة!

وقتها، وجد أهالي مملكة ساورا المنتهكة، جثة آري المتعفنة، بعد أيام من مداهمة الغزاة وانسحابهم.

حملوا الجثمان ذي الرأس المنخورة، ووضعوه القرفصاء داخل آنية الفخار الملكية، بعد أن لفوا جسده بالقطن. ثم جيء بالخصِّي الأول. حيث ُطعن في القلب تماما، وتُرِّك ليلفظ أنفاسه الآخيرة بهدؤ، ثم ُقدِّم قربانا لآري العظيم.. سلطانهم الراحل!

لم يجدوا أحدا من قارِّعي الطبول، لينقل بالضربات الخفيفة، نبأ إنتقال آري الى أسلافه.. إلى الودّيان والصحراء والغابات.. ليحمل النبأ: صّوى السّارِّي وعلامات الطريق. وهواء الصحراء وأوراق الشجر. إلى الناس والبِّيد والطيور. في السماء البعيدة..

ليخيّم الصمت الجنائزي. على الكون كله، حزنا على ضياء النجم البعيد الغارب، وقمر السهوب الشاحب، والشمس المخبأة في تلافيف الغيوم، وبخار الأرخبيل الجوفي، أسفل وادي هور، تحت درب الأربعين! وقرنا الكبش الخصِّي!

لأول مـرة، لا يقـرع إيقـاع المـوت، في تاريـخ مـوت السـلاطين بسـاورا المقدسـة.. ولأول مـرة يدفـن أحـد سـلاطينها في صمـت! دون ان تدفـن معـه مقتنياتـه العاجيـة، التـي نجـت مـن سـلب الغـزاة!

ودع النـاس آري بنظـرة عميقـة، غامضـة وهـم يدفنونـه، في الأعـماق السـحيقة للمدافـن المقدسـة، بعيـدا عـن مدافـن الشـعب. قريبـا مـن مدافـن الأطفـال!

ثـم التفتـوا يدفنـون الجنـود في منحـدرات الهضبـة، التـي يدفنـون تحـت سـطحها الأطفـال!

خلّـف الغـزاة وراءهـم صدمـة هائلـة، لم يعـرف شـعب سـاورا مثلهـا، أبـدا طـوال تاريخـه العريـق، ومـع الخـراب والوبـاء والجفـاف، كانـت أمـداء اللعنـة تتسـع!

جفـت الوديـان والـضروع، وحـلّ الخـراب بـكل شيء، وازداد نشـاط حفـارو القبـور أكـثر فأكـثر..

كان سـاو لحظتهـا، ينهـض مـن عـلى جسـد صولمنـج مهـدودا، والآخـير يتـأوه متسـائلا:

"تـرى كيـف بإمـكان سـاورا مقاومـة كل هـذا المـوت والدمـار اللـذان حـلا بهـا؟"

"لا تسألني، أريد أن أنسى كل شيء!"

"ترى كم سندفن اليوم من الموتى؟"

"أنا لن أشارك في هذا المناخ الجنائزي؛ مرة أخرى!"

عندمـا نهضـا وارتديـا إزاريهـما. كان فنـاء المدينـة قـد بـدأ يزدحـم، بجميـع القادمـين مـن المدافـن..

3

تكاثـروا عليـه.. ضربـوه بقسـوة حتـى أغمـى عليـه، وهـو بـين الصّحـوِّ والإغـماء تناهـى إليـه صـوت سـابا متنائيـا:

"سورنق.. سورنق.."

وقبـل أن يغيـب عـن الوعـي، شـاهدها وهـي تفرقهـم عنـه، وتصرعهـم واحـدا تلـو الآخـر.

كانت هائجة كلبؤة جريحة، يتطاير من عينيها شرر ألف نار!

في تلـك اللحظـة الفاصلـة، بـين الوعـي والاغـماء؛ كانـت حواجـز أخـرى بينـه و سـابا تنهـار. يصاحبهـا أسى وحـزن شـفيف، لا يخلـو مـن الخجـل:

"كيف تحمِّيه إمرأة!"

رفعـت سـابا سـورنق بـين يديهـا كطفـل صغـير، ومضـت بـه إلى كهفهـا. وظلّـت تـداوي جراحـه حتـى الصبـاح!

عندمـا أفـاق، وأخـذ يراقـب عملهـا بـأوراق الشـجر، التـي كانـت تمضغهـا، وتضعهـا عـلى جراحـه، قـال:

"سأرحل سابا"

4

و إذن.. مـن أيـن تجـيء هـذه الوقائـع والأحـداث.. مـن أيـن تبـدأ وأيـن تنتهـي؟!

هـل تبـدأ مـن تلـك اللحظـة (هنـاك) في مملكـة الـوادي.. اللحظـة التـي دهمهـا فيهـا الوبـاء، وقتـل (آريهـا) العظيـم؟!..

أم تبـدأ مـن لحظـة أخـرى، هـي تلـك اللحظـة، التـي أصبحـت فيهـا هنـد ودعـد، محـض جاريتـين، في مملكـة الجـوار، تشـبعان الرغبـات الغامضـة، و تسرحـان مـع أحـلام سـلطانها؟

أيّـاً كانـت لحظـة البداية، ثمـة علامات فارقـة متماثلة، كحرِّيـق جلابي ود عـربي، الـذي في وجهـه الآخر، هو الوباء الـذي ألتهم مملكة الجبـل والوادي!

الوبـاء الـذي خـرج مـن قلـب النعـرات.. نعـرات النـاس في جـلابي وانقسـاماتهم، التـي لا يختلـف كثـيرا، عـن انقسـامات العشـيرة المالكـة، سـواء في سـاورا، أو جذرهـا البعيـد، كمملكـة خرجـت مـن غمـوض الجبـل ووحشـته، و.. الكثافـة. كثافـة النـاس.. الكثافـة التـي جعلـت المـوارد تنضـب، والنـاس تتمـدد، بحثـا عـن وطـنٍ آخـر بديـل.

أم تبـدأ مـن تلـك اللحظـة؛ التـي اسـتفز فيهـا سـورنق الشـجن، فصعـد مـع سـابا إلى قمـة جبـل الميـدوب، يرمـي بعينيـه قلـب الصحـراء، فيغـادر بـصره مالحـة، ويخطـو عـلى طرِّيـق الملـح، عـلّ قافلـة تـأتي مـن سـاورا البعيـدة، بريـح الأهـل و الأحبـاب!

كل شيء يمتزج في كل شيء بما يتجاوز، طاقة الحُلُم!!

كأن الجغرافيـا.. (جغرافيـا الحُلُـم) بوقائعهـا وأحداثهـا، تخـرج مـن قلـب جـلابي..

مـن قلـب التاريـخ، لتُسـقِّط نفسـها في لحظـات، تراصـت الى جانـب شـقيقاتها، مـن لحظـات البـلاد الكبـيرة، لحظـات جـلابي ودعـرّبي، التـي لم تعـد تعـرف الى مـاذا تنتمـي؟!

وهكـذا يتحقـق الوعـي القديـم، كظِّـلٍ للراهـن، يحايـث هـذا المـاضي المعفَّـر، بالغبـار والأتربـة!.. أتربـة النسـيان!

الراهـن الـذي تتجاذبـه الفصـول، وبـوح الخمـور البلديـة في جـلابي. بحيـث لا يصبـح ثمـة فـرق بـين سـلمى خـير اللـه ولنقـي..

أو أُم التيـمّان ونبتـة، أو سـاو، صولمنـج، بييـه وأدروب وأبكـر وجـداد، أو سـولونقْ وسـورِّنقْ و عبـدّه الخـال..

فـلا نعـد قادريـن عـلى التمييـز، بـين شـخوص مملكـة عتيقـة، غابـت طـيّ التاريـخ، وبلـدة معـاصرة، بناسـها الذيـن لا يـزال بعضهـم أحيـاء، وبحياتهـا التـي سـكنتنا، وشـكّلّت داخلنـا، كل هـذه الهواجـس والظنـونْ، التـي دفعـت بالأحـلام الى وعيِّنـا، فتقاذفتنـا هـذه الأحـلام.. هـذه الرّغبـات المجنونـة، إلى أبعـد مـدى!

الرّغبـات المجنونـة لـ (بولدِّيـن)، في تدمـير مملكتـي شـقيقيه.. ذاتهـا رغبـات أبـو لكيلـك الجنكويـزي.. رغبتـه التـي تدفعـه ليسـلك عـلى نحـو مـا سـلك.. ذاتهـا الرغبـة، التـي تحـاصر صديقـي حسـن الآن! ليتقمصنـي وهـو يتجـوّل (يتصـور نفسـه حـرا) في طرُقـات التاريـخ.. وشـعاب ممالكـه البائـدة، مخترقـا صـوت ود الخزيـن أو ولـد الباهـي.

(في واقـع الأمـر سـكنّ صوتي، الذي تسـلل إليه خلسـة منهما).. خلسـة؟!

(الخلسـة) هـي ذات السـلوك؛ الـذي نهضـت فيـه هـذه المالـك، التـي يتجـوّل في أنحائهـا. فقـد خرجـت للعلّـن فجـأة، كأنهـا تقاريـر حقوقيـة ضد حكومـات مسـتبدّة، كـما خرجـت مـن بعـد جـلابي كتقريـر حـي، يمـشي بـين النـاس!

خرجت بعد أن وضعت قواعدها، في الظلام الدّامس، الذي حجب بداياتها، وهكذا فاجأت الناس (وهكذا انهارت).

دون أن يلحظها أحد. بسبب الخفاء (والخلسة) التي ضرّبتها حول نفسها !

السؤال هنا: هل كان آدمو عندما فعل ما فعل (يدرك خطورة الخلسة على مشروعه؟)

هل كان يظن نفسه سولونق الجد المؤسس، الذي هو عبارة عن ظِّل بنقا، مؤسس ساورا العريقة، التي أدهشت الأثاريين بتعدد حقّبها، والمرّاحل التي عاشتها، وتقلبت فيها بين الفناء والبعث كطائر الفينيق!

اذ تفنى (لاروي) (السرة) والحلفاء والجوار (المدينة الرِّيفية)، وكل الإمتدادات في الناس والطبيعة، لتنهض (خلسة) كجلابي، محورا تنعكس ظلاله، في تلك المرّايا البعيدة، وليتكون أيضاً صدّى لذلك الصوت، الذي يرتّد؛ عن فراغ جدارات كهوف الجبل و"كَراكِيرِهِ"..

5

أشعر بنوع من الصداع الغرِّيب، وأنا أحاول التغلُّب على الوسنْ! ربما غفوة فحسب تكفي لقذْفِي إلى عالم، أكثر إثارة مما ارتدت من عوالم حتى الآن!

أغالب النوم وأنا "أدعك" جفني بشدّة. أغالبه.. أغالبه.. أصرّخ في نفسي: لا أريد أن أنام.. لا أريد رؤية هذه الأشباح.. أغالبه..

ويطِّلُ بين الصّحوِّ والنّوم طيف حسن.. صوته.. ويتضخم أكثر فأكثر فيما يرى النائم..

6

يتنهد حسن: أنا الآن حزين إلى درجةِ البُكاء. محاصرٌ بصوتِ ود الخزين وود الباهي، المنبعثين من جهاز التسجيل أمامي.. بعد أن وضعتهما الصدفة المحضّة في طرِّيقي، بعد مرور وقت طويل من إمدادي لـ (علي)، في غربته البدِّيعة، بكل ما توفر في يدّي عن جلابي ود عرّبي.

ولم أكن أُصدق أن ما مددّته به، له بقية تحمِل أكثر مما حملت، تلك الشذّرات المتفرِّقة.

الآن يتكشف وعيِّي أكثر فأكثر، عن طبيعة ذلك الإهتمام، الذي أبداه "علي"، وهو يُلّح في السؤال عن تفاصيل لا تخطر على البال، عن جلابي ود عرّبي!

لم أكن أُقدّر وقتها هذا الإهتمام، و أتمنى الآن لو كان حيّاً.. هل هو ميت؟!

لأضع بين يديه هذه التسجيلات الصّوتية، التي سجلتها مع ود الخزيّن وود الباهي، بعد أن عادا إلى جلابي ود عرّبي، مهزومين و مكسورّين!

فقد ترتب على إنقسام العرّافين؛ تداعيات أودّت بهما، إلى المحاكمة بتهمة الفساد السياسي، وجرائم أخرى لا تحصى ولا تعد، لكن المحققين لم يتمكنوا من إثبات شيء يذكر منها، لذا خرجا من السجن بعد فترة وجيزة!

وما أن خرجا من السجن، بعد قضاء مدّة عقوبتهما، حتى لم يجدا لنفسهما ملاذا، سوى جلابي ود عرّبي، التي خرجا منها مسؤولين في مؤسسة أبولكيلك، وعادا إليها كما لحظة خروجهما منها: محض شخصين: "آباطهما والنجم؟".. ومغيبين غيابا فاجعا وضائعين! على الرغم من حضورهما التّام! مثل الشخوص العديدّين الذّين تضّجُ بهم جلابّي.

فمن أين أبدأ الحكي..

هـل مـن ذاكـرتي الخاصـة أبـدأ؟ أم مـن ذاكـرتّي ود الخزِّيـن وود الباهـي، المحملتـين بصراعاتهـما في الجغرافيـا الضيِّقّـة، التـي يتحـرك فيهـا أبـو لكيلـك الجنجويـدي؟!

لا أدري أيـن تكـون نقطـة البدايـة الصحيحـة. فلطالمـا تصّـوّرت؛ (مثـل كثيريـن) أن المخطوطـة السّرّيـة، أو (كتـاب دالي): محـض وهـم مـن بنـات خيـال (عـلي) ولم أتصـوّر أنهـا حقيقيـة أبـداً، حتـى التقيـت ودّالخزّيـن صدفـة، في لحظـة مـن لحظـات الحنيـن، التـي زرت فيهـا مدينـة الفـردوّس.

صافحنـي الرجـل بحميميـة، عندمـا عرّفتـه بنفـسي، وأخـذّني الى ود الباهـي، وهكـذا أصبحنـا (شُـلّة أُنـس) نلتقـي في المسـاءات، لنبـث حديـث الذِّكريـات، في جهـاز التسـجيل، نحـاول أن نتماسـك بـه، ونعلِّـن وجودنـا و اسـتمراريتنا عـلى قيـد الحيـاة، أو كأن شـلتنا، تؤكـد قدّرتهـا، عـلى أنهـا لا تـزال قـادرة عـلى الفعـل!

كانـت حكاياهـما، تسـتند عـلى مـا ورد مـن معلومـات حقيقيّـة، في المخطوطّـة السّرّيـة، التـي لم يدعـاني أراهـا أبـدا، إذ نفيـا حصولهـما عليهـا!

وكنـتُ واثقـاً أن لديهـما عـلى الأقـل نسـخة منهـا، وأن كل مـا يسردانـه أمـام جهـاز التسـجيل، إنمـا هـو مسـتقى منهـا!

كنـتُ أشـعّرُ بـوّدِ الخزّيـن، عندمـا يتحـدث كأنـه لا يخاطبنـي، أو يخاطـب جهـاز التسـجيل، نعـم.. كنـتُ أشـعّرُ بـه كأنـه يـرى آدمـو، متربعـا في الكُـرسّي المجـاور لـه، في قاعـة إجتماعـات أبـو لكيلـك، وكأن حديثـه موجّـه إليـه هـو وحـده.. وكنـتُ أرى في ذات المقعـد، أحيانـا.. شـخص (عـلي) جالسـا ورأسـه منكسـاً كعلـم القـصر الجمهـوري، يسـتمّع لتداعيات ودّ الخزّيـن، في صمـت مطبـق!

وكثـيرا مـا أختلـط لـديّ، الشـخوص المتعاقبـين بـين آدمـو وعـلي.. حتـى ظنّنـت أن هـذا الإرتبـاك والتشـوّيش، هـو مـن فعـل درجـات الصّـوت

المتغـيرة، في حنجُـرة ود الخزّيـن.

إذ أن وّد الباهـي عندمـا يتحـدث، يجعلنـي أشـعُرُ بأنـه لا وجـود لشـخص إسـمه آدمـو، أو عـلي البتـة بيننـا!

وأن مـا بيننـا، فقـط زجاجـة النبيـذ الأحمـر المغشـوش المهربـة مـن اريتريـا، و كـؤوس الويسـكي label red وجهـاز التسـجيل..

غـاص ودّ الخزّيـن بذّاكرتـه بعيـدا.. بعيـدا. إلى تلـك اللحظـة التـي تجـلّى فيهـا آدمـو، فاسـتحال إلى محـض ذاكـرّة مكثّفـة، لـلأرض والإنسـان والتاريـخ والأشـياء!

مـن أعـماق صـوت ود الخزّيـن، انسـحب الأهـالي خلـف جيـش المملكة المنهـك، وهـم يحملـون عـلى ظهـور الإبـل وظهورهـم ما اسـتطاعوا...

انسـحب الأهـالي مـن كل شـبرٍ مـن أرض الـوادي، أو موطـيء قـدم في كهـوف الجبـال، حيـث خلّفـوا ذكرياتهـم التليـدّة..

في هـذا الـوادي أنشـأ الأسـلاف مملكتهـم المجيـدة، التـي اسـتقطبت الأصدقـاء والأعـداء، لوقـتٍ طويـل.

في الأرض والطبيعـة أنتسـجت حيـاة النّـاس.. وفي رمـال هـذا الـوادي وعـروق الجبـل، توحـد مصيرهـم لوقـت طويـل، طويـل..

عاشوا غربتهم في غربته. وتآلفوا في أُلفة جبل الكبش العظيم!

ظلّـت حياتهـم تأخـذ معناهـا مـن الجبـل، والجبـل يأخـذ قيمتـه، مـن هـذه الحيـاة المتجـدِّدّة. بمغامراتهـما معـا. وأحلامهـما التوسـعية، التـي لم تتحقـق أبـدا. فبقيـت كملحمـة مكبوتـة طّـيّ الذّاكـرة والنسـيان.

في هـذا الـوادي ولّـدت عـدّة أجيـال. في كهـوف جبالـه تعـاصرت أجيـال أخـرى. وخـرج كل هـؤلاء وأولئـك، يودعونهـم في اللحظـة الرّاهنـة، وهـم يغـادرون إلى الأبـد!

فمنـذ اختلفـت العشـيرة المالكـة عـلى المُلـك، بعـد أن دهمهـم الوبـاء الـذي طحـن المملكـة، وأُصيـب آري جـراءه، حتـى أنشـغل أبنـاؤه الثلاثـة، باقتسـام السـلطة، فعـمّ السّـلب والنهـب، و انفـرط عقـد الأمـن، لتلتهـم الفـوضى كل شيء!

منذّهـا غـادر تاريـخ الـوادي حيـاة إنسـانه، وظـل يراقـب العشـيرة المنهكـة، وهـي تتفـرق وتلتـف، حـول انقسـاماتها الثـلاث.

الهـزّات التـي أصابتهـم بهـا الصراعـات عـلى سـلطة الملـك، تجلّـت في انفعالاتهـم وقراراتهـم ومصائرهـم.

قالت والدة الابن الأكبر دودو:

"أنت أحق بالعرش من أخويك"

قالت والدة الابن الأصغر سوني:

"أدّر أنت الجيش وأترك لأخيك أمر المملكة. المملكة هي الجيش!"

وقالت والدة الابن الأوسط بنقا:

"أسـمعني جيـدا. لقـد أوصى لـك أبيـك آري العظيـم بعرشـه. فـلا تخذّلـه مهـما يكُـن مـن أمـر. فلـم يعهـد بـه إليـك عبثـاً!"

انسـحبوا بإنقسـاماتهم الثلاثـة؛ يِيمّمـون وجهـات الـشرق والوسـط والشـمال.. ينطّـوّون عـلى أحـزانٍ شـتىّ، وذّكرياتهـم.. كل ذّكرياتهـم تنـأى عنهـم، وتتـلاشى في فـراغ الذّاكـرة الفسـيح..

تجمعـت أقسـام مملكـة الجبـل والـوادي الثـلاث، في السـهل الممتـد. تجمعـت كجيـوش مهزومة، تنسـحب من آخر معاركها الخـاسرة.. تقدّم بنقا:

"تناحرنـا فيـما بيننا، ولم نحقـق وصية آري العظيـم. لم نحقق أحلامنا ولم نحافـظ عـلى مـا ورثنـا، ولم ننجز شـيئا! والآن لم يبـق أمامنا سـوى أن نفترق! ونتفـرّق في هـذه الأرض، ليحـاوّل كلٌ منـا البـدءِ مـن جديـد كـما يشـاء!"

”ما مضّى مضّى.. لم تعد ثمّة جدوى من القاء اللّوّم على أحد. أنا سأيمّم وجهي شّطر البحر“

أضاف سوني:

”سأمضي باتجاه الرّيح؛ لأُشيد مملكة أُخرى“

وشخصا بعيونهما في وجه دودو؛ الذّي أبتسم في خبث دون أن ينبس ببنت شفّة! ثم أشار لرجاله والأهالي الذين خلفه، ومضى في طريق الصحراء!

تركهما خلفه يكفكفان ذكرياتاً لن تفارقهما أبداً، ذكريات بعضها يعود الى الطفولة الباكرة..

تنهد حسن:

”كان دودو منذ طفولته كأبو لكيلك الجنجويدي. كلما رأى شيئا جميلا بيد أحد شقيقيه، سارع لإنتزاعه.. يضرّبهما دونما سبب واضح.

يلهو معهما عندما يرغب هو بذلك. يفسد عليهما ضحكاتهما العذّبّة عندما يشاء، فيعكّر صفو الذّاكّرة، التي نشطت في اختزان التفاصيل المقيمّة والعابرة، ودفقة الإحساس لحظتها!

فشلت كل أساليب التنشئة الملكية؛ مع دودو المغرّم بعراك الصبية، وقتل الحيوانات الأليفة! دونما حاجة لذلك أو مبرر..

عندما كبِّرَ دودو قليلاً، أخذ ينتزع أراضي الفلاحين، ويزداد جبروتاً على جبروته بمرور الوقت!

فاض كيل النّاس بدودو. فأخبروا آري الذي قام ب(تبخيره بالشطّة) وربطه عاريا على شجرة قمبيل، أسفل الوادي. في أوجِّ البرد! وأعتقد أن ذلك سيكون درساً قاسياً.

كأن بخوّر الشطّة وزمهرير البرد، أطلقا شياطين الجحيم في دماء دودو..

إذ صار يدخل بيوت المزارعين، في أطراف المملكة عُنّوّة.. يختطِّف بناتهم ويهرب بهنّ، الى الفيافي، التي يعرّفُ كلُ شبرٍ منها. يجدّون في البحث عنه، يقودهم شقيقيه، وبعد بحث مضّنٍ، يجدون الفتيات منهكات ومنتهكات، وملوّثات بالدّم، وعلى أجسادهن القروح النيئة، ولا أثر لدودو.. كأنه ذرّة غبار تلاشت في رمال الوادي القاحل!

نفاه السلطان الى أرضٍ بعيدة، على حدود المملكة، يحكمها أحد أمراءه الأشداء، الذي خصص لحراسة دودو العبيد القساة، والجواري الصُّم!

توسطّت أُمه.. توسطّت شقيقته الوحيدة لاروي الحبيبة. توسطّت العشِّيرّة الملكية، قاصيها ودانيها. توّسط الجميع.. ولم يتراجع آري العظيم عن قراره أبداً!

كان متعجباً من هذا الإبن الغرّيب!

عندما غادر دودو، لم يكن مسموحاً لأحد بزيارته في منفاه، سوى شقيقته التي يحبها كضياء عينيه، ووالدته (إياكوري) الحقوّدة، التي كانت عندما ترى ذلك البرّيق في عينيه؛ وهو ينظر إلى شقيقته لاروي.. البرّيق ذاته الذي رأته في عيني آري، قبل أن يتزوجا.. تخشى عليهما إغتراف الفعل الشنيع، الذي يحرِّمه عليهما العرف ودمهما الواحد.. البريق اللعين ذاته تراه في عيني دودو، وهو يحلّق حالما في وجه لاروي وجسدها..

ذات البرِّيق تراه في عيني لاروي، وهي تتفحص بنظراتها الحالمة، جسد دودو الفارع مفتول العضلات!

تحادث إياكوري دودو، و يطمئنها. تحادث لاروي فتهديء بالها.. وحالما تخرج من منفىّ ولدها، تتجوّل مع العبيد والخصيان في أرجاء المنفىّ المنبسط، حتى ترتمي لاروي على أحضان دودو!

الآن دودو يريد أن يبني مملكته الخاصّة، في هذا الشعب الذي حلّ به على غفلة من الزمان..

كان كل شيء في الجـوار، يبـدو غريبـا عليـه. فشـعب الجـوار ليـس كشـعبه، الـذي تفـرق في السباسـب والوّهـاد، عاريـا إلا مـن (الكنافـس) الكتانيـة، التـي تلّفهـا النسـاء حـول اسـفل الخصُـور والعجيـزات والفخذّين، والمـآذر التـي يلِّفهـا الرجـال حـول أصلابهـم..

نسـاء الجـوار، كُـنّ يسـدلنّ عـلى صدورهـن أغطيـة مـن القطـن، تتـدلى مـن العنـق لتصّـل الخـصر، تلامـس كنافيـس القطـن الناعمـة. بينـما يكتفي الرّجـال بلّـفِّ أصلابهـم وحـزم بطونهـم.

كان شـعب الجـوار هادئـا في طباعـه، ليـس مثلهـم هـم: سـاكني الكهـوف والحجـرات المنحوتـة في الجبـل..

الأكـواخ التـي يسـكنها شـعب الجـوار، بنيـت مـن القصّـب و فـروع الأشـجار عـلى قاعـدة الحجـر والطـين اللّـبِن، كانـت هـذه الأكـواخ مشـيدة في نظـام دقيـق. مدهـش! لم تقـع عليـه أعينهـم مـن قبـل!

"أنـه شـعب متفـوِّق علينـا. هنـا سـأحقق أحلامـي. سـأبني مجـداً، لم يتصـوّره آري أبـداً"

قال دودو لأفراد عشيرته، الذين ترددوا:

"لكنهم يعبدون القِّط!"

فرد عليهم بحسم:

"دينهم هو ما ترونه من نظام"

حسـم آري دودو الأمـر؛ وبـدأ يُشـيِّد بمسـاعدة الأهـالي مملكتـه العُظمـى؛ بعـد ان سـوى امـورِّه مـع هـذا الشـعب الجديـد!

وقتهـا كان بنقـا قـد اسـتقرّ في وادٍ فسـيح؛ بعـد مسـيرة أيـام طـوال في درب الأربعـين. وادٍ جـدد فيـه الذكـرى والشـجن والحنـين لمملكـة الجبـل والـوادي. التـي تركهـا خلفـه وبـدأ مـع رجالـه يعملـون بجـد، يشـيدون

نـواة مملكتهـم الجديـدة.

"ماذا نسميها؟"

"ساورا.. سنشِّيدها للأجيال إرثاً ليس كمثله إرث"

أضاف أحد الرّجال:

"أحـد الغربـاء يقـول أن دودو حـطّ رِّحالـه؛ عـلى مسـيرةعدة ليـال ونهـار مـن سـاورا"

"إنها مملكة الجوار التي يحلم بها"

"ماذا تعني؟!"

"لا شيء، لننهي ما بدأناه من عمل في أقصّر وقت"

كان دودو قـد تسـبب في كل مـا حـلّ بهـم؛ برفضـه لوصيـة آري. إذ أوغـرّ بعـد موتـه الصـدور، وأشرّع أبـواب المملكـة عـلى مصاريعهـا للغرباء، واعتقـد أن الوبـاء الـذي تسـبب في مـوت آري، وأخـذ ينتـشر إنتشـار النـار في الهشِّـيم، سـيجعلهم يتخلّـون عـن وصيّـة آري، وينصِّبونـه آري مكانـه.. قـال آري وهـو في النـزع الآخـير:

"ستكون يا بنقا خلّفي؛ وترأس أنت الجيوش

يا سوني"

"وأنا يا أبي؟"

قال دودو فقطّب آري حاجبيه:

"أنـت ولـدي الاكـبر؛ لكنـك لم تقُـم بواجـب الإبـن الأكـبر أبـدا.. تخلّيـت عـن بكوريتـك وظللـت كالبعـير الـشرّود! فـلا يحـق لـك أن تـرِّث في مُلـكي!"

اتسـع نطـاق انتشـار الوبـاء، الـذي ظـلّ يحصِّـد في طرِّيقـه الأرواح، كـما يحصِّـد المزارعـون قناديـل العِّيـش، قـال الكهنـة:

"انتشار الوباء وموت آري من علامات الزّمان!"

نشّـط دودو وعشـيرة أُمـه، يعبئـون رجـال المملكـة وأهلهـا، مسـتعينين بالنسـاء الملكيّـات، في دسائسـهم ومؤامراتهـم.

تفرّقـت الكلمـة وعمّـت الفـوضى فاجتمـع الأُخـوّة الثـلاث بالكهنـة والشـيوخ الذيـن أكـدوا:

"لابد من تنفيذ وصيّة آري"

"لكنها خرّقت العُرّف!"

قال دودو وتبعه سوني:

"مثلـما يحـق لبنقـا تـولّي العـرش؛ يحـق لي ذلـك أيضـاً.. لكنني سـأكتفي بـأن أكـون سـلطانه عـلى الجيـوش. إذا تنحـى دودو عـن المطالبـة، بالحـق في العـرش"

ولم يفلـح الكهنـة والشـيوخ في إقناعهـم. فانقسـمت المملكـة إلى ثلاثـة أحـلاف. كل ابـن مـن الأبنـاء الثلاثة؛ تسـنده أُمه وعشـيرتها وبعـض الأهالي..

في الطفولة البعيدة كان دودو يحكي أحلامه التوسعية العظيمة:

"عندما أُصبح آرى سأستولى على مملكة الجوار"

"لماذا تستولى عليها؟!"

يقول سوني، فيرد دودو:

"هناك الرّجال الذين يصلحون للجندية، والخصب والعمارة"

"ذلـك كلـه لا يعنـي شـيئا، في غيـاب رخـاء العيـش و العـدل. هـل تسـتطيع تحقيقهـما؟!"

"ليس العدل هو المطلوب"

"ماذا تعني؟!"

"أعني أن المطلوب هو الهيمنة"

انسحب بنقا من خواطره الكثيفة، على صوت أحد الرّجال:

"وضع سوني نواة مملكته عند منحنى النهر"

"إنها أرض مكتظة بالممالك الصغيرة. لن يتركوه"

7

منـذ أن حـطّ سـوني رحالـه عـلى شـطِّ النهـر؛ أدرك أن الممالـك التـي جاورهـا؛ لـن تدعـه يهنـأ بهـذا المـكان؛ الـذي أختـاره بعنايـة؛ لإقامـة مملكتـه الجديـدة.

فحـرِّص عـلى زيارتهـا واحـدة تلـو الأُخـرى.. جلـس الى ملوكهـا وأكـد لهـم:

"نحـن إنمـا قـوم مسـالمين، نزحنـا نبحـث عـن وطـن، بعـد أن قـضى الوبـاء عـلى مملكتنـا"

"ستكونون تحت إمرتنا"

"أنتم أصحاب الأرض؛ ونحن لا نريد سوى الحياة في سلام"

كان سـوني قـد أدرك تمامـاً؛ أنهـم لـن يتركـوه وشـأنه. وأنـه لـن يسـتطيع إحتمالهـم طويـلاً. لكنـه ظـل يسـارع إلى تلبيـة طلباتهـم المتكـررّة، والمسـتمرّة دون توقـف.

واجتهـد في تهدئـة خواطـر عشـيرته، حتـى لا يفلِّـت زمـام الأُمـور، وهـم في هـذا الحـال مـن الضّعـف!

"يجـب أن نكمـل بنـاء هـذه المملكـة اولاً؛ وعندمـا تقـويّ شـوكتنا، يمكننـا أن نسـتعد للحـرب، لتثبيـت حقنـا واسـتقلالنا عمـن جاورنـا، وفـرض سـلطتنا عليهـم إن تمكنّـا مـن ذلـك"

اسـتقرّت مملكـة سـوني ونمّـت وازدّهـرّت، بكفـاح شـعبها الصغـير، وتجمـع جيشـها ليخـوض أولى الحـروب، التـي تقـرر مصـيره بشـكل نهـائي وحاسـم.

لم يخال أحد أن هذه الحرب القاسية، التي منذ بدايتها، قلل فيها الجميع من شأن سوني وشعبه ستنتهي يوما!

وضعت الحرب أوزارها؛ بانتصار سوني على آخر مملكة، تبقت من الممالك الصغيرة حوله. كان قد ضمها إليه، وعيّن على كل واحدة منها، ملكاً من أقوى عشائرها، حاكماً من قبله، وتحت سلطانه يساعده طاقما من عشيرة سوني المالكة!

أصبح آري سوني مهاباً ومطاعاً.. وهكذا نهضت مملكة الحلفاء، من غياهب تاريخ مزّقته المحن والعداوات والتآمر!

قال ود الباهي:

"إذا كانت الجبال (كما قال آدمو) وقد وفرّت الملجأ الضروري؛ لمملكة الجبل والوادي. فإنها أيضاً قد حجبت بداياتها!"

أكد ود الخزِّين وهو يواصل ما أنقطع من حدِّيث بعد أن قلب حسن شريط الكاسيت على الوجه الثاني..

مرّت عشرات السنوات بل المئات منها، وربما عدّة قرون (كما يزعم آدمو عندما تنتابه نزعات تطرّفه الخاصة جداً).. مرّت هذه الفترة الطويلة من ذكرى الأسلاف الكبار: آري سوني و آري بنقا وآري دودو.. الذين أصبحت ذكراهم أصداء متلاشيّة، لماضٍ عميق الغّور!

مرّت مئات السنوات الأُخرى، لتندثر ذكراهم تماما فلا تنبعث، الا في الكشف الأثرِّي بجلابي ودعرّبي..

هذا الكشف الذي استقت منه المخطوطة السرّيّة، تفسيراتها لوقائع ما يجري. الجذور التاريخيّة، التي تنهض فيها هذه الوقائع والأحداث!

هذه الأحداث التي يعود نموذجها؛ لا في ذكرى الأسلاف الأوائل فحسب، بل في مرحلة لاحقة.. في ذكرى الكيرا (كما عرِّفها آدمو)؛ التي

نهضت بأسرتها من جذور هؤلاء الأسلاف الكبار.

وأصبحت ذكرى الكيرا نفسها، كأصداء متلاشيّة لأُسرّة ملكيّة، نهضت في الغرّبة والترحّال..

ضربت بجذورها عميقا، في أرض الوادي، وشيئا فشيئا توسعت المملكة، خلال التحركات الملكيّة، وبسطت سلطانها من الصحراء الليبية، حتى حدود النيل. يقودها الأب المؤسس لهذه المرحلة والفاتح العظيم آري سولونق.

قبل ذلك بوقتٍ طويل، في فجر تاريخ البلاد الكبيرة، كان سوني قد شيّد قصرًه على غرار قصوِّر أسلافه.. قصراً مهيبا بقاعدته الواسعة وحجراته المتداخلة في بعضها، وأبهاءه العديدة، التي جلب لها المثّالين والبنائين من الممالك المجاورّة.

شيدوها بإحساساتهم الجياشة، ونحتوا فيها النقوش، التي تصّوِّر الايام الآخيرة لمملكة الجبل والوادي، وآريها في النزع الآخير، وقد إلتف حوله أبناؤه الثلاثة.

نحتوا تاريخ المملكة البائدة بمحبة وود شدِّيدين، كانهم ينحتون تاريخ محبوباتهم..

كان سوني طموحا، يتطلع لإعادة بناء مجدٍ مفقود كضياء النجم الغارِّب. جلس الى حلفاءه، الذين أستهل أحدهم الحدِّيث:

"لقد شيّدت مملكة عظيمة؛ وسوف تزداد عظمتها كلما مضت الأيام والسنون"

"تذّكروا دائما أنها ليست مملكة سوني وحده؛ فهي مملكتنا جميعا. فدونكم لما استطاع سوني فعل شيء وحده"

استحسن ملوك الحواضر كلامه؛ فاندفع أحدهم قائلا:

"كلنا فداء لك أيها السلطان العظيم؛ آري سوني"

صفق سوني بيديه ونهض قائلا:

"أعدوا مجلس الخمر والطعام"

أسرع العبيد والخصِّيان، الى القاعة المجاورة. نهض خلفه ملوك الحواضر. كانت رائحة الطعام الشّهي، ونكهة الخمر المغرّيّة تضوّعان، في فضاء القاعة، السابحة في العطر البرّي..

تفرّق مجلس سوني، بعد أن تداول أحوال المملكة وهموم شعبها، وتوسيع تجارتها وزيادة رحلات القوافل وتدريب الجيش..

وقتها في مملكة ساورا، كان بنقا قد جمع رجاله وقسم بينهم الحواضر و (الشرتايات) و (الدماليج)

تفحص رجاله مراراً وتكراراً؛ واحداً تلو الآخر ثم قال:

"ستكون أنت ملكاً للحراب، وأنت للسيوف.. وأنت للمدى ّ التي تُرمى، وسيكون ثلاثتكم.. كل واحد منكم مسؤول عن حاضرتين. أُريد منكم، أن تحكموا كما كان الحال في مملكة الجبل والوادي.. مملكتنا العظيمة التي قضى عليها الوباء وموت والدنا آري"

ثم أطرّق بنقا قليلا، قبل أن يُضيف:

"وأنت ستكون ملكا للحصاد، وأنت للقوافل، والجبايات.."

"أمرك آري.. لكن ملك العبيد والخصيان.."

"أعلم ما تُريد قولّه. هو أيضا ملكا للقضاة"

"سنكون طوع أمرك آري العظيم"

"تذكروا أن الجيش مسؤوليتكم جميعا، وأنكم أنتم المملكة.. دونكم لا وجود للمملكة"

8

عندمـا أنهـى دودو في مملكـة الجـوار تشـييده لقـصره، شرع في احتفـالات التنصّيـب، مقرونـة باحتفـال زواجـه مـن شـقيقته لاروي..

اسـتمرّت احتفـالات المناسـبتين السـعيدتين لأيـام. جعلـت النـاس متنازعـين بـين مشـاعر متناقضـة بـين الفـرّح والحُـزن، والإحسـاس بالخطيئـة. فقـد مـرت عقـود عديـدة، منـذ توقفـوا عـن زواج الاقـارب، حتـى لم يعـد مألوفـا الآن!

ومـا أن علِـم دودو بمعارضـة بعـض أفـراد العشـيرة الملكيّـة، لهـذا الـزّواج الـذي خـرّق العُـرف ولم يجـرؤ أحدهـم عـلى قـول ذلـك، مبـاشرة لآري دودو، حتـى اختفـى هـؤلاء المعارضـين في ظـروف غامضـة! دون أن يُعثرلهـم عـلى أثـر بعـد ذلـك أبـداً!!

9

جلـس دودو وزوجتـه الصغـيرّة الجميلـة (إيابـاسي) (9) لاروي، في قلـب المخـدّع الملـكي الواسـع الوثـير.. قالـت لاروي:

"يكفينا أن نخرُق العُرف مرةً واحدة"

"وما جدوى كل ما فعلناه اذن؟!"

10

مـرّت عـشرات السـنوات، عـلى ذكـرى الأسـلاف الكبـار: سـوني، بنقـا ودودو، فحكـم شـاو مـن سـلالة سـوني مملكـة الحلفـاء. وحكـم حفيـد بنقـا دورشِّـيت سـاورا الجميلـة، ومـن سـلالة دودو ولاروي جـاء بولدِّيـن..

عندمـا نهـض بولدِّيـن مـن مخدّعـه، كانـت إياكـوري زوجتـه لا تـزال تغـطُّ في نـوم عميـق، تمعـن جسـمها الممتـليء تسـبقه أصابعـه المتشـهيّة.

كان جسـمها يـكاد يتدفـق مـن السرِّيـر الوثـير. سـحب عليـه الغطـاء وخـرج. ولـج عـلى الكهنـة والشـيوخ حجـرة عملهـم الواسـعة:

"أنتـم تعرفـون أننـي مغـرّم بـأسرار الجسـد؛ أريدكـم أن تكشـفوا لي عـن هـذه الأسرار؛ لا تدعـوا حيوانـاً دون أن تشرِّحـوّه. أريـد معرِّفـة كل وظائـف جسـمه:

ومـضى يجلـس عـلى (الكّكّـر) بعـد أن طلـب العبـد العمـلاق القصـير نمـرود:

"أنـت جديـد في خدمتـي. سـأُجربك بـأول مهمـة. اذا نجحـت لـك منـي كل مـا تحلـم بـه؛ وإذا فشـلت فلـن تسـتطيع تصّـور، مـدى بشـاعة الميتـة التـي أُعدّهـا لـك!"

"... ... ..."

"سـتمضي أنـت وأعجوبـة إلى مملكـة الحلفـاء.. أعجوبـة تعـرف كل شيء"

11

عندمـا وصـل النمـرود بأعجوبـة الى مملكـة الحُلفـاء، وضعـا رحلهـما ريثـما يُهـيء لهـا النمـرود مكانـاً بقلـب الحـاضرّة، بـين الفـواشر و القـصر الملـكّي..

12

كـبرقٍ يخلخِّـل كيميائهـم، فوجـيء أهـالي الحـاضرّة بالجـمال المذهـل لاعجوبـة! هـذا الجـمال الـذي أنتـزع عيونهـم مـن محاجرهـا، وقلّـب حاضرتهـم رأسـا عـلى عقـب!

أُصيـب البعـض بالجـذب، وغـرق آخريـن في الشـعر والغنـاء، حتـى ماتـوا ولهـاً وصبابـة.. حتـى أن الكهنـة ارتبكـوا، وشـعروا باحساسـات لم يسـبق لهـم الشـعور بهـا!..

كان جـمال أعجوبـة، شيء، مـن ذلـك النّـوع العجيـب، مـن الجـمال الشرِّيـر!..

تسـآل قـادة الجيـش، الذيـن قهرّهـم دلالهـا وسـحرها، وداعبـت ملـوك الحـواضر أحـلام، جعلتهـم في بلـلٍ مسـتمرْ، فسـأل الملـك عـن سر هـذا الاسـم، الـذي يـتردد في الأُغنيـات والأشـعار، بـل ومتسربـا أغـان الحصّـاد، وتجليـد النحـاس وعيـد الجلـوس عـلى الككـر، وشـعائر الرجولـة وذكـرى الحلـف المقـدّس، وأُغنيـات الحـداد الجنائـزي، عـلى مملكـة الجبـل والـوادي، ومـوت آري بالوبـاء الغامـض!

"أعجوبة؟ يا له من إسم!"

تسـآل آري شـاو وآثـر السـلامة. رفـض رؤيـة أعجوبـة عندمـا رغـب ملـك العيـون أن يـأتي بهـا إليـه..

تسـآل الشرتايـات والدماليـج، وأخـذوا يتسـلّلون خفيّـة مـن خلـف ظهـور ملـوك الحـواضر و (الكامنـي) (12) ليمتعـون أبصارهـم برؤيـةِ أعجوبـة، ويمضـون وقتهـم الموتّـور، في مـصِّ الشـفاه اليابسـة، عـلى ضـوءِ نـار الحطّـب، التـي تتوّسـط سـاحات بلداتهـم وقراهـم، وهـم يتسـامرون

مـع الأهـالي، الذيـن لا يُصدّقـون مـا يسـمعون!

"كيف لم تبقِ بوجدان الرِّجال شيئا لآخريات؟!"

"أنه ما يحدث لكل من يراها يا خَيّ!"

أصبح مجلـس عجوبـة؛ عامـراً بكبـار القـوم الذيـن يتقربـون زُلفـى.. يتزلفـون دون حيـاء..

كانـت النـيران قـد اشـتعلت في قلوبهـم، وهاجهـم الوجـد، وقـضّ مضاجعهـم الإشـتياق، الـذي أقلـق منامهـم برِّيـح الصّبـا، التـي تجـيء مـن الحكايـات البعيـدة، خلـف "بحـر مالِـحْ"..

قال النّمرود:

"لـن يلبثـوا أن ينقضـوا عليـك عجوبـة؛ فلـن يحتملـوا أكـثر مـما احتملوا مـن إغـواء.. أرى ذلـك في عيونهم!"

"وماذا ترى؟!"

"يكفـي مـا أثّرنـاه فيهـم.. لقـد وضعنـا أسـاس الخلّـل.. يجـب أن نهـرب لتـأتِ هنـد ودعـد، تنجـزان مـا تبقـى مـن المهمـة"

"أنسيت تهديد آري؟!"

"فعلنا ما هو أكثر من المطلوب!"

13

ومثلـما جـاء بهـا النّمـرود فجـأة. فوجدهـا النّـاس بينهـم عـلى حـين غـرّة، ودون سـابق إنـذار، اختفـى بهـا فجـأة، فأصبـح النّـاس وكأن أعجوبـة لم تكُـن بينهـم قبـل ليلـة واحـدة!..

اختفـت أعجوبـة مخلفـةً وراءهـا الحكايّا الأُسـطوريّة، والأشـواق العارمة الملتهبـة! وأقسـم قـادة الجيـش وملـوك الحـواضر، بأنهـم سيفترسـونها دون إبطـاء، لـو وقعـت أعينّهـم عليهـا مـرة أُخـرى!..

14

تنهد ود الخزِّين وحاول أن يُكمل، فقاطعه صوت ود الباهي:

"ما فعلته أعجوبة بالناس لا ينمحي، من ذاكرّة التاريخ"

"أيُّ تاريخ، وأيُّ ذاكرة؟!..التاريخ الرّسمي؟!"

خرج صوت شاو متحشرجا من أعماق حُنجرّة ود الباهي،

وهو يخاطب خصِّيه الأول:

"سمعت بجارِّية بديعة، بهرّت النّاس؟"

"إنها امرأة ظهرّت فجأة. أشعلت النيران وأختفت!"

"كيف أختفت؟"

"لا نـدري.. كل مـا حـدث أننـا اكتشـفنا فجـأة أنهـا لم تعـد موجـودة.. ربمـا عـادت مـن حيـث جـاءت"

"دون سـبب؟!.. لابـد أنكـم لاحقتموهـا جميعكـم، وهـي مجـرّد إمـرأة وحيـدة.. أخـبرني ملـك العيـون"

انـصرف الخـصِّي الأول متعجبـا مـن أطـوار شـاو الغريبـة، فيـما كان (كتركـوا) يدخـل عـلى مجلـس دورشِّـيت في سـاورا البديعـة:

"أحـد التجـار جـاء بجاريتـين لم نـرْ مـن هـنّ في مثـل جمالهـنّ البديـع مـن قبـل!"

رد عليه ملك القوافل:

"أعتني بهما ثم أحضرهما بعد ذلك إلى آري العظيم"

التفت آري الى ملك الخيول:

"هل تمّ عدد سائسي الخيل؟"

"نعم آري العظيم. وأشترينا المزيد من الجياد الأصيلة"

"فرساننا أشداء. يستحقون جياداً كريمة. أخبر ملك القوافل بأن يأتيك بالمزيد. أُريد جيشا لا يُقهر"

"لسنا بحاجة لمثل كل هذه الإعدادات آري"

"أنا من يُحدد ما نحتاجه وما لا نحتاجه، فلا تنس ذلك مرةً أُخرى"

أخيراً خرج (الأُورنانق) عن صمته:

"يجب أن نكون أقوياء"

خيّم صمت عميق على قصر بولدِّين، الذي كان لحظتها جالسا على عرشه، وأمامه تلمع ثمانية عيون ببرِّيق عجيب، بين الشرّاهة و الأحلام المحلِّقة.

قلّب بولدِّين عينيه متفحصاً المشاعر، التي تبوح بها العيون الثمانية المتغوِّرَّة، في الصّمت العميق الذي لَفّ المجلس. زفرّ بعمق:

"تدركون تلك الحكاية.. حكايتنا.. كيف تفرّق شعبنا الواحد وانقسم إلى ثلاثة شعوب منذ عشرات السنين.

لقد أورثنا الجد الأكبر دودو وخلفائه مهمّة صعبة. مهمّة توحيد شعبنا مرةً أُخرى!"

قالت ماريانا:

"أنجزّت أعجوبة جزءً من المهمّة"

"لكنها لم تشعل النّار في قلب آري شاو.."

قال عبد اللّه الجُرهمي، وسألت ماريانا:

"أين عجوبة الآن؟"

ردّ الجُرهمي :

"بصُحبة إبنتيها الكنداكة وسابا.. إذ لم ترهما منذ وقت طويل"

فتساءلت ماريانا مرة أخرى بضيق:

"لماذا لا نقنّع ساورا والحلفاء بمهمّة آري؟"

خرج آري بولدِّين عن صمته:

"لقد فاوضتهم كما فاوض أجدادي أجدادهم، الذين يأخذون على الجَدِّ الأكبر دودو ما حلّ بهم من فرقة وشتات، ويقولون أن شعبيهما لم يعودا ذات الشعبين الذين رحلا من مملكة الجبل والوادي.

يقولان أنهما الان شعبان مختلفان مثلنا.. اختلطوا بالنّاس الذين وجدوهم والذين جاءوا إليهم..

تحدث فوك الذي كان صامتا منذ جلسوا الى آري بولدِّين:

"ليس أمامنا الآن سوى الحرب"

"لا، الحرب هي المرحلة الأخيرة، فهما مملكتان قويتان.. ربما أقوى منا "

تسآلت العيون كلها، فأجاب آري بولدِّين بابتسامة خبيثة:

"أنت ماريانا. و.. فوك ستذهبان معاً إلى ساورا. ستشغلِّين أنت آري دورشِّيت، وتصرفينه عن هموم القصر والناس.

وأنت فوك عليك بتغيير مزاج الناس واهتماماتهم. هناك آخرين كُثُر سيساعدونكم. بعضهم تعرفونهم (ربما) وبعضهم لا تعرفونهم!"

ثم التفت آري ناحية عبد اللّه الجُرهُمي:

"وأنـت منـذ الآن أيهـا الجرهمـي، محـض تاجـر يـسرِّي عليـك اسـم التاجـر، أكـثر مـن أي شيء آخـر.. تتنقـل بـين الحـواضر الثـلاث بقافلتـك، تنقـل أخبـار العيـون الينـا و أوامرنـا اليهـم"

"أود أن.."

"أفهمـك. سـترحل أعجوبـة إلى الحلفـاء، ولـن تعـود مـرةً أُخـرى إلا بعـد إنجـاز المهمـة كاملة"

"ابنتيها صغيرتين بعد؛ وقد أثر غيابها فيهما"

ستحملهما معها هذه المرّة"

لم يسـتطع عبـد اللّـه الجرهمـي النُطـق ببنتِ شـفة. انفـضّ المجلس، وما أن ابتعـد الجرهمـي حتـى أوقفه صوت هند. انتحت به وهمسـت في أُذنه:

"انجِ بنفسك.. أعجوبة ستقتلك!"

"ماذا تقولين؟"

'أنها تخدعك.. تخونك مع العبد النّمرود!"

وحكـت لـه الحكايـة.. منـذ تلـك اللحظـة العاصِّفـة في المغـارّة، التـي بسـفح التّـل الصّخـري عنـد جـرف الـوادي، حتـى لحظـة هربهـم. وجـاءت دعـد لتؤكـد لـه الحكايـة:

"أنـت ابـن عمنـا مهـماً يكُـن مـن أمـر، ولا نريـد لـك المـوت أو الأذى بسـبب عاهـرة أسـلمت قيادهـا لعبـد.."

قاطعها بغضب وجسمه يرتعد:

"سأقتلها.. سأقتلها"

"سـيقتلك آري بولدِّيـن، ولـن تهمـه إفادتـك عنهـما.. لا يهمـه لـذا سـيقتلك فهـو يعتمِّـد عليهـا في تحقيـق حُلمُـه بضّـم مملكـة الحلفـاء

وســاورا و الــرأي عنّــدي أن تهــرب ببنتيــك"

أطرق قليلا ثم قال بعد تردد:

"كيف وهي لا تفارقهما؟!"

"سنساعدك في ذلك"

بـدى الجرهمـي مجروحـا ومخترقـاً إلى أقـصى حـد، حتـى أنـه لم يقـوى عـلى المـشي فانهـد عـلى الارض كجبـل.

15

أخـذ شـاو يحـكّي عـن الجـد الأكـبر سـوني، وهـو يُشـيد مملكتـه، مـن عذابـات الرّحيـل وأسى الغربـة والفرقـة والشـتات، لتترابـط وتتوحـد وتقوى بوجـه الأعـداء..

"لقد أورثنا سوني العظيم مملكة عظيمة علينا أن نحافظ عليها"

قـال شـاو، ففهـم الحلفـاء مـا يرمـي إليـه، فالبلبلـة التـي اشـاعتها أعجوبـة في صفوفهـم، كانـت محـور مجالسـه. نظـروا الى بعضهـم البعـض. وأطرقـوا رؤوسـهم. قـال أحدهـم:

"سيظل حلفنا خالداً أبد الدّهر"

قال شاو :

"إنما جمعتكم الليلة لتجديد الحلف"

فتدخل آخر:

"لدي أمر كنت أود أن اطرحه"

" ... ..."

"نحـن حلفـاء لسـاورا منـذ كـوّن الأجـداد هـذه المملكـة العظيمـة. وسـاورا يفصـل بيننـا وبينهـا مملكـة الجـوّار؛ وهـي مملكـة لا تقـل عظمـة عـن سـاورا"

أطرق شاو حفيد الجد الأكبر سوني قليلا، ثم قال:

"ربمـا حـكى لكـم أجدادكـم عـن الجـوّار. فهـي المملكـة التـي أسسـها دودو شـقيق جدّنـا الأكـبر. ودودو وخلفائـه لا يتحالفـون مـع أحـد مثلنـا. فهـم دائمـا يطمعـون فيـما بيـد غيرّهـم"

أضاف أحدهم:

"أغلـق دودو أبـواب العشـيرة الملكيّـة دون الإختـلاط بشـعب الجـوار. وظلـوا يسـتولدون في هـذه العشـيرّة المنهكـة"

أكد السلطان:

"تـزوّج دودو مـن شـقيقته الوحيـدة لاروي، ومنهـما تحـدرّت هـذه العشـيرّة الملعونّـة، التـي ظلّـت تحكـم الجـوّار"

"أنهم ليسوا أهلا للثقة"

"ويعبدون القِّط"

"رغـم انغلاقهـم عـلى أنفسـهم، غلـب عليهـم ديـن الشـعب الـذي وجـدوه في الجـوار وحكمـوه، بعـد أن تركـوا عبـادة الكبـش المقـدس"

16

استقبلت ساورا يومها المعتاد بنشاط النحل وهمته. دلفت إياكوري إلى مخدعها؛ لتجد آري لا يزال يغط في نوم عميق. جلست تنتظره لوقت طويل، إلى أن فتح عينيه بتثاقل، فابتسمت في وجهه:

"هكذا أنت دائما"

جذبها إلى أحضانه:

"ومن الذي جعلني هكذا؟!"

دخل كتركوا:

"هيأت لك الحمام آري"

نهض آري وهو يقول:

"هيء إياكوري أيضا"

فهتفت به:

"ليس الآن.. ليس الآن.."

ابتعدت خطوات آري، فقالت إياكوري تخاطب كتِركوا:

"ما هي أخبار المحظيات.. محظيات آري.. وجواريه؟!"

"أنت تعرفين كل شيء أكثر مني"

قالت في غضب:

"أجب فقط"

"أنه يقضي أكثر لياليه معك. لا تستطيع أيُّ جاريّة أن تأخذه منك"

ابتسمت إياكوري في صمت ثم صرفته بإشارة من يدها.

17

حمل بولدين مولوده الصغير من إيابا سي. تمعن وجهه وهمس:

"سيكون لك شأن عظيم، كجدّك دودو بني" وضع المولود برفق على صدر أمه، التي ابتسمت في عذّوبة، وأغمضت عينيها في دِّعة واطمئنان.

خرج بولدِّين.. عبرممراً طويلاً. وقف في نهايته ودخل واحدة من الحجرات، استقبلته هند بالأحضان:

"غبت عني حتى خلتك نسيتني"

"لقد انشغلت بولادة الصغير"

"إياباسي تنسيك كل شيء"

ردّ في غضب:

"أنت تعلمين أنني لا أُحب أن يتحدث عنها أحد"

"إنني أُحبك"

"بل تخافين منِّي"

حدقت هندْ في عمق عينيه؛ وانسحبت إلى ذكرّى بعيدة.. ليلة هربت وشقيقتها دعدْ مع أُختهما أعجوبة، وخطيبها عبد اللّه الجرهمي..

كان الرُّعب يقود خطواتهم، ويقفز بقلوبهم خارج أقفاصها. لم تهدأ نفوسهم إلا عندما وصلوا مملكة الجوار.. تقدّم الجرهمي من أحد النّاس:

"دلني على قصر السلطان"

وقتهـا كان آري بولدِّيــن يجلــس وحيــداً.. مطرقــاَ برأســه في تفكــير عميــق، عندمــا هتــف بهــما الحاجــب:

"ادخلوا"

18

بينـما اجتمـع فـوك بماريانـا كان التاجـر، الجرهمـي يهمـس في أُذُن أعجوبـة:

"يجـب أن نعـود إلى موطنّنـا.. هنـاك حيـث الجبـال.. جبـال البحـر الكبـير"

"كيف نعود وأنت تعلم ما تعلم عن عشيرتنا! سيقتلوننا"

"مشكلتنا مع الملك وليس مع العشيرة"

"لكنه الآمر الناهي!"

"كان ينبغـي أن نبقـى.. ونعالـج الأمـر. يجـب أن نعـود. لقـد أخطأنـا بالهـروب"

"ومهمتي في بلاد الحلفاء؟"

"انسي كل شيء.. لا شأن لنا بهذه الأمور"

"لا اسـتطيع بعـد كل مـا فعلـت. ولا أضمـن البقـاء عـلى قيـد الحيـاة. لم يعـد الأمـر بيـدي، وليـس سـهلاً سـهولة هرّبنـا مـن ديارِّنـا"

19

قال الكاهن الكبير:

"لقـد صنعنـا هـذا السـائل الشـفاف، مـن عصِّـير بعـض النباتـات النّـادِّرة ومزجنـاه بسـائلي القِّـط والفـأر"

أخـذ آري بولدِّيـن يتفحـص الحيـوان الصِّغـير، المسـلوّخ الممسـوّخ الرأس دون أن يُعلـق.

"لقد كررّنا الأمر أكثر من مرّة.. أنه لا يستمر في النّمو"

ظل صامتا..

"لن نألوا جهداً آري حتى ننجح"

20

لاحظـت أعجوبـة التغيـيرات، التـي أخـذت تطـرأ عـلى عبـد اللّـه الجرهمـي، ولاتـدري لهـا سـببا.. فانتابتهـا الشـكوك.. افترقـت عـن النّمـرود الـذي أوصاهـا بمراقبتـه، و مـا أن وطـأت أقدامهـا عتبـة الكـوخ حتـى فوجئـت بالجرهمـي الـذي داهمهـا بالسـؤال:

"أين كنت أعجوبة؟!"

"طلبني آري لأستعد للرحيل إلى مملكة الحلفاء"

تفكّر قليلا:

"أُفكر في العودة الى الدِّيار وحدي واقتسام الملك مع أخي"

"سيقتلك. إنها علاقة دّم"

"العرش لا يعرِّف علاقات الدّم"

"العـرش يقـوّى بعلاقـات الـدّم.. ثـم خـير لي أن يقتلنـي أخـي مـن أن اقتـل هنـا في ديـار غريبـة!"

"لم أعد أفهمك! ما الذي تخبئه عنِّي؟!"

كان الجرهمـي قـد تأكـد مـن صِّحـة مزاعـم هنـدْ ودعـدْ، حـول علاقـة عجوبـة بالنّمـرود وحـاول أن يسـتجيب لنصيحتيهـما. بمقاومـة الأتـون الـذي يعتمـل في دواخلـه..

و اخـيرا قـرّر أن يهـرب ببنتيـه التـؤام (سـابا والكنداكـة)، مـا أن تحـين لـه الفرصـة المناسـبة..أبعدّت أعجوبـة بصرِّهـا عنـه. قـال:

"ماذا عن شقيقتيك؟!"

"ما بهما؟"

"هل طاب لهما المقام هنا؟"

"لا يهمني.. لم تعودا أُختاي اللتين أعرفهما.. حوّلهما بولدِّين إلى عاهرتين تخصّانه"

كان الجرهمي يخطِّط للهرّب الى مكان لا يعرفه فيه أحد. انشغلت أفكاره بتؤامتيه الصغيرتين؛ حتى لم يتمكن من النوم، الى أن دهمته من أثرِّ الأرق والإرهاق غفوّة.

وعندما صحىّ انتبه لغياب أعجوبة، ثم أخبرته جاريتها أنها رحلت مع النّمرود في الفجر، الى مملكة الحلفاء وتركت له واحدة من تؤامتيه..

كانت أعجوبة قد اطمأنت على صغيرتها التوأم سابا.. ألبستها أيقونة منقوشة بدقة.. لفتها جيدا بالقطن والكتان.. حملّت الكنداكة برفق ونادت جاريتها:

"اعتني بها جيدا"

ثم التفتت إلى النّمرود:

"لنرحل الآن"

"والجرهمي؟!"

"تركت له إحدى تؤامتيه.. سيدبر أمره"

"إنها قسمة عادلة"

"لابد أنه سيعود إلى ديارنا"

وابتلعت غلالة الفجر الضبابية في حشيتها النّمرود وأعجوبة..

كانت أعجوبة لحظتها، تكرر ذات قصة هروبها من ديارها، في ذلك الليل البهيم..

عندما نمَّت أعجوبة وترعرعت. وأدركت أن عشيرتها لن تتركها تتزوج من النّمرود، الذي تفتحت وردتها عليه ذات عاصفة وزمهرير. جاءته:

"ليس أمامنا سوى الهرب"

أطرق الفتى العملاق. وبعد صمت عميق أجاب:

"سيلحقون بنا ويقتلوننا. الرأي عندي أن أتقدّمك إلى مملكة الجوار.. لن يلحظ أحد اختفائي سريعا، سأبقى وأنتظرك هناك الجرهمي يحبك. (إملأي رأسه) ليهرب بك، وسنرى بعد ذلك في أمرنا وأمره ما يكون"

كانا يتحدثان خلف أحد أعمدة البهو الكبير؛ في القصر الملكي. لم يلحظا هندْ ودعدْ اللتان كانتا تراقبان أعجوبة، وتصطنّتان إلى حديثها مع النّمرود..

اختفى النّمرود صبيحة اليوم التالي. ولم تمض أيام معدودات، حتى ملأت أعجوبة رأس الجرهمي، فتعارك مع أخيه الملك الشّرِّيف.. فيما كانت هندْ تهدِّد أعجوبة. أنها ودعدْ تعرفان كل ما خطّطت له مع عبدها النّمرود، ولن تدعاها تهرب مع الجرهمي دونهما.. وإن فعلت أو حاولت خداعهما، سيكشفان للجرهمي أمرها.

عبأت عجوبة الجرهمي وأقنعته، بأن أخيه الشريف يتآمر لقتله، حتى يخلص له الملك و يصفوّ له الجوّ فيتزوجها دونه، وأنهما يجب أن يهربا.

"لن أترك هندْ ودعدْ خلفي. لا أطمئن عليهما هنا دوني"

"لا أعجوبة. إنهما في أهلهما لن يحدث لهما شيء"

"لا.. لا أستطيع فنحن يتامى لا أحد لنا سوّى بعضّنا البعض"

وبعـد جهـد جهيـد تمكنّـت أعجوبـة مـن إقنـاع الجرهمـي. ومضيـا يُخطِّطـان إلى أن حانـت الفرصـة المناسـبة فهربـا إلى الجـوار..

كانـت أعجوبـة في أشـدّ الإشـتياق للنّمـرود. تُمنِّـي نفسـها باوقـات مختلسـة معـه. هنـا في الجـوار.. فكانـت طـوال مسـير الهـرب، إلى الجـوار تتـأوه كلـما وضعـا للراحـة الرحـال، وتتنهـد عندمـا تطأهـا الأشـجان كـما تطـأ الأقـدام جـسر عتيـق منهـد:

"آه يا نمرود يا غرّة عينِّي.. وشغَّاف قلبي"

21

مـا أن اسـتقر المقـام بفـوك وماريانـا بمملكـة سـاورا؛ حتـى شرعـا يُنفـذّان خُطـة بولدِّيـن ملـك الجـوار. اسـتطاعت ماريانـا انتـزاع آري مـن محظياتـه وجواريـه، وأجهـدّت نفسـها كثـيرا لإنتزاعـه مـن إياكـورِّي..

كانت تسلُّب لبه بما تعلمته من أفانين في قصر الجوار.

أختلَّـت مواقيـت آري، وأخـذت اهتماماتـه بأحـوال المملكـة، وشـعبها تقـل شـيئا فشـيئا.. كانـت السـنوات تمـر، والأشـياء تتبـدل شـيئا فشـيئا، فيـما كانـت عـلى الجانـب الآخـر، الكندّاكـة تكـبر وتتكـوّر. ُفتجـدِّد أحـلام القـادة بأعجوبـة، التـي ظلّـت تشـعِّل مواجدهـم..

22

كان التاجـر عبـد اللّـه الجرهمـي، قـد أدرك أنـه فقـد طفلتـه الكنداكـة الى الأبـد. فحمـل سـابا توأمتهـا ومـضى إلى أن وصـل طريـق الملـح، فقصـد مالحـة.

حمـل الجرهمـي حقـده و(غبينتـه)، وتسـلّل في ليـلٍ بهيـم، مخلفـاً وراءه هـروب أعجوبـة، التـي هربـت مثلـما هربـت سـلفها سـوبا، مـن زوجهـا الصيـاد! ومثلـما هربـت بناتهـا الـلاتي تحـدّرن مـن صلبهـا مـن أزواجهـنّ، ومثلـما هربـت شـقيقتيها هنـدٍ ودعـدْ إلى سـاورا..

23

إنـه الحنـين إلى الـدّم.. دّم آخـر في النـار والشـفق.. لا يقـوى وجدانـه عـلى احتمالـه. دّم ينحـدر مـن الجـنّ الذيـن حبسـهم سـليمان في قماقمـه.

كـرّس عبداللّـه الجرهمـي حياتـه لصغيرتـه سـابا، التـي طبعّـت العزلـة حياتهـا فوسـمتها بالإنطـواء والانـزواء. لاتنـشرِّح إلا وحدهـا في الجبـل. تأنـس بصديقـات لا يراهـنّ أحـد.. صديقـات تراهـنّ وحدهـا..

وفيـما عبداللـه الجهنـي وابنتـه سـابا غارقـافي في عالمهـما الجديـد، كان فـوك وقتهـا ينشـط في اسـتقطاب شـباب سـاورا، يطلعهـم عـلى فنـون لا يعرفونهـا في قاعـة اتنـي الفسـيحة، التـي شـيدها بعـد أن أسـتأذن آري.

زينهـا بالزخـارف والنقـوش، ورَصّ عليهـا طـاولات، مـن عـروق الشـجر. ودِّكك مـن الحجـر الرَّمـلي وعـروق الجبـل.

ألحـق فـوك أتنّـي بسلسـلة مـن الأكـواخ، التـي جلـب لهـا الجـواري الحسـان مـن الجـوار، ليسـكن اليهـن مرتـادي أتنّـي.

وظلّـت غرفـة فـوك المُلحقـة، بأتنّـي مغلقـة دون النّـاس، لا يدخـل فيهـا إلا خاصتـه مـن قـادة الجيـش وملـوك الحـواضر والملـوك المحتملِّين.. يجلـس إليهـم ويحدِّثهـم عـن الأولـين والآخريـن، ويُهـيء لهـم الأكـواخ لقضـاء متعتهـم، ويهديهـم الجـواري اللـواتي تعجبهـم، ليرحلـن معهـم الى حواضرهـم وقصورهـم..

قـد يـأتي فـوك أحيانـاً بشـباب سـاورا المميزِّيـن إلى غرفتـه السـاحرة يسـقِّيهم الخمـر، ويمـضي بهـم إلى غياهـب، يخرجـون بعدهـا منهكـين متألمـين!

24

سأل التاجر الجرهمي الصّبي الصغِّير، الذي ظلّ يحدِّق في القافلة:

"ما أسمك؟!"

"سورِّنقْ"

"هل ترغب في أن تصبح تاجراً؟!"

"لا.. أرغب في ارتياد الآفاق البعيدة.. اريد ان اصبح أري ساورا"

"عندما تكبر قليلا ستمضي معي"

"شارفت على سن الرجولة"

"إذن بعد أن تُجرى لك شعائر التدريب الرّجولي"

انتسجت في فكر التاجر الجرهمي خواطر مبهمة. فراسته تفيد بأنه سيكون لهذا الصّبي شأن في مملكة ساورا.. هذه المملكة اللعينة التي فقد بسببها زوجته، وتوأمه الكنداكة، فتيممت وتوحدّت الصغيرّة سابا وتوحشّت في وحدة التي بلا أنيس!

"إذن تريد أن تحكم ساورا"

"نعم"

"الجوّار لن يتركها لك"

"وما شأن الجوّار بساورا؟!"

"ثأر قدِّيم.. اسمع كلامي كي تنتصِّر على الجوار"

"سأسمعه"

"سأعدِّك إعداداً جيداً لن نتركه يحقق حلمه أبداً"

"ألا تأخذني معك الآن؟!"

"لا تتعجل الأمور، لا يزال هناك وقت كاف.. فقط اكتم الأمر بيننا"

بعدها ببضعة سنوات مضى سورِّنقْ إلى دالي الذي دهمه:

"لقد قررّت أن أرحل سورِّنقْ"

"إلى أين؟!"

"لا ادري وجهتي.. سأمضي إلى أي مكان"

"وساورا؟!"

"آري يقودها إلى الدّمار. سآتي لإنقاذِّها يوماً! أنا لا أُريد أن أحكم سورِّنقْ. التعاليم هي التي يجب أن تحكم.. هناك هاتف يناديني سوِّرنقْ"

"إذن تريد أن تمضي لتتعلم المزيد؟!"

"أُريد أن أتأمل لأرى ما يجب أن أراه.. سأمضي سائحا في البرّاري، لتكتمل أفكاري لأجل ساورا العظيمة"

"ستجدها خراب عندما تعود!"

"لكنك ستنقذها. أنت من ينقذها سورنق!"

أطرق سورِّنقْ قليلاً:

"أنت إذن تتنازل لي عن عرش لم تملكه بعد!"

"العرش لمن يختاره شعب ساورا"

"سيختار من العشيرة الملكية"

"أنت من العشيرة الملكية"

"من جهة أُمي فقط! يجب أن أرحل معك"

"بل ستبقى وإن أردت سترحل وحدك؛ فأنا راحل وحدي"

وأفترقا...

25

أصبحت الكنداكة الفتاة الفارعة، ذات الجمال المجنون، والجسد المتمرِّد سلطة قابضة، يزورها الملوك وقادة الجيش، أكثر مما يزورون سلطانهم.. محمّلين بالهدايا الثمينة والأحمّال الغالية.

كانت تستقبلهم جميعاً، ثم أدّعت ضيق المكان، بعد أن جعلتهم يدمنونها. فأمر أحد قادة الجيش ببناء قصر بديع لها. لا يضاهيه سوى قصر آري..

"أُريد الزّواج من الكنداكة"

قال القائد فردّت أعجوبة بمكر:

"اصبر قليلا فهي لم تصبح إمرأة بعد"

"لكنها بسن الزّواج!"

"ذلك لأن جسمها الفارع، نضج قبل أوانه، لا يخدعنّك الجسد. فلجسد المرأة معجزاته. لا تزال البنية صغيرة!"

"سأصبِّر لشهور قليلة فحسب"

"لا نريد أكثر منها"

أحاطت الكندّاكة قصرّها بالعبيد والخصّيان، وصارت تحدد مواعيد متباينة، لزوارها حتى لا يصطدِّمون ببعضهم البعض.. قالت أعجوبة لآري:

"قادة الجيش.. كل واحد منهم يريد الحصول على الكنداكة؛ وأنت الوحيد الذي يستحقها؛ فهي خادمتك التي تحبك، ولا تستطيع القبول بأحدهم إلا بعد معرفة ردّك"

قالت ذلك فيما كانت ترميه بنظرّة أورثته ألف حسرّة.

"وأنا أُريد الكنداكة"

"لقد قلت لهم أن السّلطان يريدها (أعذرني يا مولاي) فهددّوا بقتلها وقتلي"

مضت أعجوبة، تاركة آري خلفها يتميز من الغضب، ثم لم يلبث أن جلس متفكر، إلى خواصه؛ فيما كان، قائد الجيش يلحق بالكندّاكة:

"يجب أن نتزوج الآن"

"لكنك لم تكمل تدريب عبيدي وخصّياني"

"بل فعلت"

"أعني الجدد"

"في كل مرّة تأتين بالمزيد من العبيد والخصّيان. ماذا تريدين أن تفعلي بكل هؤلاء؟!"

"أُريد أن أحميك وأحمي نفسي من السلطان؛ والملوك الآخرين"

"كيف؟!.. ما الذي يجري؟!"

"سأُخبرك في الغدِّ عند مجيئك، فأعجوبة الآن متوعكة قليلا!"

وبالفعل كانت أعجوبة في النّزع الآخير لحظتها.. فيما يبدو أن أحدهم في قصر أري، قد قرر التخلص منها، فدّس لها السُّم دون أن تستطيع الكندّاكة معرفته. قالت أعجوبة بصوت واهن حشرجه السم:

"تفرقنا عن بعضنا كندّاكة.. تركنا ديارنا.. وحرمنا أنفسنا من تؤامك سابا.. وكل هذا ثمن غال.. فلا تسلِّمي هذه البلاد للجوّار.. ان تحقق الُمرّاد.. ولا تكوني لأحد الرّجال فتضيعي مثلي"

حشرجت بكلماتها الاخيرة، ثم لفظت أنفاسها تاركة الكندّاكة خلفها تبكيها، فيما جيشها الصّغير الذي كوّنته من عبيدها وخصّيانها.

كان لحظتهـا يدهـم إحـدى القوافـل، بعـد أن قتـل كل مـن في قـصر الكندّاكـة، ممـن طالهـم الشـك في دس السـم لأعجوبـة!..

قيَّـد جنـد الكندّاكـة كل رجـال القافلـة، ومضـوا بهـم إلى حيـث كانـت الكندّاكـة تقيـم..

كانـت الكنداكـة وقتهـا قـد أنشـغلت بأحزانهـا عـلى أمهـا، رغـم مـضِّي أيـام وأسـابيع وشـهور، مـرّت كلمـح البـصر، دون أن تئـد حـدة حزنهـا. الى ان دخلـت عليهـا واحـدة مـن الجـواري، فلملّمـت الكندّاكـة آلامهـا، وسـألت في أسى:

"ماذا تريدين؟!"

"لقـد مـضى وقـت طويـل عـلى أمـر القافلـة التـي اسـتولى عليهـا رجالنا، دون أن تنظـري فيه"

نهضت الكندّاكة من مكانها، ومضت تتفقد

حجرات حبس الأسرى.

اشرع سـورِّنقْ، الـذي كانـت السـياط قـد مزقـت ظهـرّه.. عينيـه عـلى آخرهـما، في دهشـة واسـعة، ولم يعـد يشـعر بـالألم وهتـف:

"سابا؟!"

التفتت إليه الكندّاكة، التي بوغتت وفي ذهول اقتربت منه:

"ماذا قلت؟!"

"سابا.."

"هل تعرفها؟!"

"انها زوجتي"

"زوجتك أنت؟!"

قالـت باسـتنكار؛ ثـم أشـارت الى العبيـد، بـان يفكـوا قيـدِّه ويحـضروه الى مجلســها.. جلســت تنتظــره. أدخلــه عبدهــا (ميمــون) كان ممزقــا، نحيـلاً، تغضّـن جلـدُّه، عـلى خيـوط الـدّم المتجمـدّة، التـي تقيّـح بعضهـا. دفعـه ميمـون بقسـوّة .فعاجلتـه:

"والآن أحكِّي لي ماذا تعرف عن سابا؟!"

"تزوجتها من أبيها وليّ نعمتي الشيخ عبد الله الجرهمي"

"هل تعلم من أكون؟"

"لو لم أكن أعلم أنها وحيدة لقلت توأمتها"

"نحن تؤام بالفعل"

"لم تخبرني!"

"ربما لا تذكر، والجرهمي لم يخبرها"

اخـذه العبيـد إلى إحـدى الحجـرات. تركـوه دون قيـد، واعتنـوا بـه. أحـضرت لـه جاريتهـا ثوبـا مـن القطـن، لـفَّ بـه صلبـه وصـدرَّه، وألقـى مـا تبقـى عـلى كتفـه..

مكـث سـورِّنقْ في ضيافـة الكندّاكـة أسـابيعاً وأيـام؛ حتـى شُـفىّ، وعـاد أحسـن مـما كان. وقتهـا كانـت الكنداكـة تبحـث الأمـر مـع ميمـون. تحدثـا طويـلاً وتشـاورا، ثـم أمـرت بإحضـاره اليهـا.

"اذن انت من ساورا الهالكة، لا محالة؟"

"كيف؟"

سردت عليـه الكندّاكـة خطـة الجـوار، التـي ظـلّ آري بولدِّيـن، يعمـل عليهـا بهـدوء شـديد منـذ سـنوات طويلـة. فقـال بغضـب:

"يجب أن اخبرهم"

فختمت بحدة:

"اخبارهم فات عليه الاوان، ووحدك لن تستطيع عمل شيء"

"سأحاو ل"

اطرقت قليلا ثم قالت:

"و سأساعدك لكن بشرط"

"ما هو؟!"

"أن نتوحد بعد ذلك معا في مملكة واحدة، نحكمها ثلاثتنا. وتكون انت "الكامني: سلطان الظل" فما بيننا دّم، انت زوج توأمي ووالد عيالها"

فكر سورنق قليلا! لم يرقه عرضها، لكن لم يكن في وضع يسمح له بالرفض فوافق:

"قبلت"

أطلقت الكنداكة سراحه وسراح قافلته، وأعطته من عندها ثلاثة قوافل..

"انها لأجل سابا. أحكِّي لها خبري"

"لا محالة سأفعل"

كان سورنق قد قرّر، ألا يأتي على ذِّكر الأمر لسابا. سيكتفي بمناقشته مع الجرهمي فحسب.

مضت قوافله لأيام وليال وأسابيع عديدة، وعندما وصل الى مالحة، كان الجرهمي، قد مات. فكتم الأمر بعد نزاع يشتد ويخف في نفسه، فالكنداكة كما تقول فراسته، لا يؤمن شرّها! كما أنه لم يُرِّد تعديل أحلامه، بإضافة تفصيلات جديدة.

وقتها كان آري شاو ومملكته، يعيشان أيامهما الآخيرّة، إذ اجتمع قادة الجيش، وتحدّث أحدهم إلى ملك القادّة بغضب:

"أنت ملكنا وهيبتك من هيبة المملكة'

تطاير الشرّر من عينّي ملك القادة:

"ماذا تريد أن تقول؟"

"كل النّاس تقول، ان الكنداكة تعبث بك"

"لا أحد يجرؤ على العبث معي"

"ما قالته لك في أمر الزواج، قالته لغيرك"

"لم تخبرني العيون بشيء من هذا"

"لأنها وعدت ملك العيون أيضا"

نهض قائد الجيش في غضب، ومضى إلى الكندّاكة، التي جاءتها جاريتها ركضا لتجدها في أحضان ميمون.. فغرّت الجارية فاهها، لملّمت الكندّاكة نفسها بسرعة، وهي تصِّيح بالجارية في غضب:

"ما الذي جاء بك على هذا النحو، وفي هذه الساعة؟!"

"انه قائد الجيش.."

همست الكندّاكة في أُذن ميمون:

"أقتل هذه الجارِّية فهي لا تؤتمن، حتى لا يعرف القادة أنك لست خصِّيا، فيقتلونك ويقتلونني!"

نادى ميمون على الجارِّية، التي أدركت انها لا محالة هالكة، فالكندّاكة قلبها كأنه قُدّ من الصّلد. لا يعرف الرّحمة. والحجر يشعر وميمون لا يشعر.. إرتاعت الجارِّية:

"أُقسم أنني لن أُخبر أحداً"

أطبق ميمون بيديه على عنقها. تلّوّت حتى جحظت عينّاها، مع تهشُّم سلسالها الفقري، تحت وطء كفيه الغليظتين!

26

عندما ذكر قائد الجيش الأمر للكنداكة، قالت له أن ذلك القائد تقدّم لخطبتها، فرفضته كما رفضت سواه، ولذلك يكِّيد لها.

فغضب قائد الجيش، وقاد عدداً من الجند لإعتقال ذلك القائد.. هاج بعض القادة.. فاعتقلهم. تدخل ملوك الحواضر، والقادة المتبقين. تدخل آري وأحتشدّت الجيوش ضد بعضها..

وقتها كانت الكندّاكة، على رأس جيشها تنتظر لتقاتل المنتصر..

27

صفق آري بولدِّين بيديه، وصاح بالحاجب..

جاء على إثر ذلك الكهنة والشيوخ والعيون. وما أن جلسوا حتى وجه بولدين حديثه إلى الكهنة:

"كيف تمضي الأمور؟!"

"لا زلنا نُشرِّح القِّط؛ لنكتشف أسراره. فهو حارس عالم الأموات وأسراره كثيرة"

أضاف آخر:

"ستحمل لنا الأيام القادمات أسرارا كثيرة"

تحدث كبير الكهنة:

"عبادة القِّط تنتشر في ساورا ببطء شديد!"

قال آري بولدِّين:

"أنتم لا تبذلون جهداً كافياً!"

"سنفعل آري العظيم.. سنفعل"

عقّب أحدهم:

"حدثتنا النجوم عن وباءٍ كثيف ومحلٍ شديد؛ سيحل بساورا، في السنوات القادمات!"

قال آري بولدِّين:

"وما جدوى سيطرتنا عليها، إذا كانت ماحلة وموبوءة"

"بدأنا نعد الترياق آري. والنجوم تقول، أن الجفاف الذي سيضربها، سيعقبه خير وفير. سنعمرها بعد أن ينقشِّع عنها الوباء. هذا هو الرأي عندي!"

"الجفاف والوباء أمران لم أضعهما في الحُسبان"

"لكنهما يفيدان في اسقاط ساورا"

أكد بولدين:

"والعيون تفيد ايضا، أن الأمور في مملكةِ الحلفاء تمضي كما نشتهي. فالحرب بينهم أشتعلت، ولن تلبث الكنداكة إلا قليلا، حتى تسيطر على الأمور كلها"

علّق أحد الكهنة:

"و هل ستعطينا لها الكنداكة لقمة سائغة، بعد أن أجهدت نفسها فيها؟!"

"أنها عاملة من عمالنا، ثم أنها بذلك تشتري عتق والدها الجرهمي وتوأمتها سابا"

"ربما تعرف أنهما لم يمكثا في الجوار.. فالجرهمي هرب بابنته بليلٍ.. اختفى بها على نحوٍ غامض!"

"لو كانت تعلم بمصيرهما كما تقول؛ لأفادنا ميمون بذلك. لكن يبدو انها لا تزال تظن أنهما ها هنا، حيث تركتهما أعجوبة، قبل أن تغادر مع النّمرود"

"قد لا تبالي لهما؛ فبريق العرش ليس دونه إغراء!"

"فلتكن إذن الحرب بيننا"

"ستلتف حولها العشائر المتحالفة"

”ستقضي الحرب على العشائر. وستقضي الكنداكة على ما يتبقى. هكذا أوصتها أعجوبة“

”لكن قد تكون أعجوبة، خرجت عن الخطة الأساسية، وأضافت تفصيلات من عندها“

”وإن يكن فالحرب بيننا. وستكون لصالحنا؛ فالكنداكة لن تقوى على الدخول في حرب جديدة، وقد خرجت من حرب للتو“

”منذ مات النمرود بصورّة غامضة؛ اصبح من الصعب، الوثوق فيما يردِّ من أخبار الكنداكة“

28

إمتـلأت سـاورا بالجـواري الحسـان، الـلاتي جلبهـن تجـار الجـوار، بأرخـص الأثمـان. لم يخلـو كـوخ مـن الأكـواخ في سـاورا منهـن. انتـشرّن كـما ينتشرالسُّـم في الدّسـم، وعجّـت بهـن حانـة أتتّـي الناهضـة في قلـب سـاورا، يتجمعـنّ فيهـا ليتدفقـن عـلى امتـداد سـاورا الجميلـة.. يعـدن مـرة أُخـرى ويمضـين بالأهـالي إلى عـالم ظـلالي لاهـب، وحُلُـم لا ينتهـي..

يدخـل النـاس غلالتهـن الشـفافة ولا يخرجـون، إلا وهـم عـلى حافـة الإغـماء، بالرّهـق الـذي كأنـه رهـق سـنوات عديـدة.

تحرّشت هندْ بالعجوز دورّة:

"ألا تريد أن تعود لصِّباك أيها الشيخ؟!"

زجرها دورّة وهو يمسح لحيته الكثّة..

لحظتهـا؛ كانـت دعـدْ تتلـوىّ بـين أحضـان حاكـم الحـاضرّة الشـمالية، في غرفـة فُـوك الحُلُميـة الغامضـة! تشـعِل أحـلام الحاكـم بأشـواق ومواجـد لم يعرفهـا أسـلافه أبـداً..

29

حشّـد سـلطان الجـوّار جيشـه، بعـد أن تأكـد لـه سـقوط الحـواضر السِّـت لسـاورا، وزحـف بهـدوءٍ شـديد..

زحف جيش ساورا المنهك، مثقلا بهزائمه المريرّة.

زحف الجيشان تجاه بعضهما البعض!

اقتربا.. اقتربا.. ولم يتوقفا عن الزحف أبداً!

أراد جيـش الجـوار أن يسـتريح، لتكـون المعركـة الفاصلـة، فجـر اليـوم التـالي..

الـشرّر الـذي يتطايـر مـن عينّـي آري، منعـه الإسـتجابة، فأصـدر قـراره المباغـت بالالتحـام.. حـارب ببسـالة فائقـة أدهشـت الجـوّار.. كان يقاتـل كألـف رجـل، ركبهـم الجـنّ، وشـياطين الجحيـم، إلى أن اخترقـه سـهم مسـموم، فـأرداه قتيـلاً..

سـقط آري.. سـقط القتـلى.. سـقط الجرحـى.. وتفرقـت بقايـا الجيـش في السـهول الواسـعة، لسـاورا المنهكـة..

وقتهـا، كانـت الكندّاكـة قـد هيمنـت عـلى مملكـة الحلفـاء، ودان لهـا الأمـر، فمضـت تبنـي مملكتهـا وجيشـها، عـلى غـرار تنظيـم الجـوار، الـذي أخـذت تسـتعد لـه، في سرّيّـة وصمـت تامـين!

جاءها ميمون فبادرته بالسؤال:

"هل انتهت تدريبات الجند الجدد؟!"

"صـار لدينـا جيشـاً عظيـما، منـذ اسـتلمت زمـام الأمـور كنداكـة.. لكـن يبـدو أن الجـوار لـن يتركنـا وشـأننا، اذ يسـتعد لمعركـة!"

ثم أستطرد:

"ثمة رجل وأمرأة من الجوار، يريدان لقاءِك"

"ألا تعرفهما؟!"

"ومن لا يعرف فوك وماريانا!"

"لماذا لم تدخلهما؟!"

"لم أرى لذلـك ضرورة عاجلـة؛ فاسـتضفتهما في إحـدى الحجـرات، إلى حـين إبلاغـك بأمرهـما"

نهضـت الكندّاكـة يتبعهـا ميمـون، الـذي تقدمهـا إلى إحـدى الحجـرات.. دخلـت.. كانـت ماريانـا وفـوك مقيديـن إلى ظهـري بعضيهـما البعـض.. وكانـت الدمـاء تسـيل عـلى جسـديهما، وقـد تغـوّر حبـل غليـظ مـن عـروق الأشـجار، في لحميهـما"

"أتيتـما اذن برسـالة بولدِّيـن اللعـين. هـل يتوقـع بعـد كل مـا فعلـه بأُمـي وخالتـي وأبي وتوأمتـي.. بعـد كل ذلـك، هـل يتوقـع أن نسـلمه مُلكنـا لقمـة سـائغة؟!"

"وما ذنبنا نحن.. إنما نحن رسل؟!"

"... ... ..."

"نحن نكرّهه أشدّ مما تكرّهينه"

سـارع فـوك بالقـول. فأمعنـت الكنداكـة نظرهـا في عينيـه، ثـم انتقلـت إلى عينّـي ميمـون، الـذي أومـأ لهـا هامسـا:

"لقد أخبراني عن كل العيون، التي يعرفانها"

أامسكت بهم؛ أم ليس بعد؟!"

"وجميعهم اعترفوا"

ابتسمت الكندّاكة في رضا:

"اسمع فوك. لدي من العيون في كل مكان، أكثر مما لدى بولدين، اعرف حتى ما الذي يجري داخل حجرات نسائه، وأعلم بقصتك مع ماريانا؛ التي أجبرها بولدِّين اللعين على فعل أشياء؛ لا ينبغي أن تفعلها مع سواك، كما أجبرك أنت أيضا. أنا لن أُجبركما على شيء، وأُقدِّم لكما عرضاً لن تجدا مثله أبداً! عرض فوق أحلامكما!"

"مُرينا"

"أريد خبرتكما في كل شيء؛ ولن تندما على ذلك أبداً، ستحصلان على ما يفوق عطاء بولدين لكما.. أُريد أن أعرِّف كل شاردة وواردة في الجوّار"

"هل ستطلقين سراحنا؟!"

"لا أعنّي ذلك بالضبط في هذه اللحظة.. أقصد الان، أن تدلانا على من نحن بحاجة إليهم في الجوّار. وعلى من يُشكِّلون خطراً فعلياً علينا هناك"

30

كـرّر ميمـون عـلى عيونـه التـي اجتمـع بهـا، الأسـماء التـي يجـب أن يتخلّصـوا منهـا..

"تقربـوا منهـم بحـذر، ودسـوا لهـم السُّـم دون ان يسـاورهم الشّـك. بولدِّيـن هدفكـم الأول. ثـم قـادة جيشـه وملـوك حـواضره.. والمؤثريـن في العشـيرة الملكيـة، لا أُريـد فشـلاً. والـذي يتمكـن مـن قتـل بولدِّيـن لـه عنـد الكندّاكـة مـا لم يحلـم بـه يومـاً ولـه منـي كذلـك عطـاءٌ عظيـم!"

31

مضت العيون لتنفذ مهمتها، بينما حاصر أحد الشيوخ، الذين التف حولهم جمع من الناس، ميمون.

أصرّ الشيخ الوقور، على الدخول للكنداكة، التي كانت غارِّقة في أفكارِّها، عندما دخل عليها ميمون يبلغها طلب الشيخ:

"حوله جمع من النّاس ويصِّرُّ على رؤيتك!"

"أهو من الجوّار؟!"

"لا.. يقول أنه من مكان بعيد، ومن كل مكان.. يقول كلاما لا أفهمه.. يقول أنه أتى برسالة المخلِّص؟!"

32

دخـل الشـيخ الوقـور، في جسـمه الملتـف كلـه بالكتـان، وبقـي أحـد كتفيـه عاريـاً. كان يحمـل عصـا معقوفـة مـن الحـرّاز، ذات شـعبتين في مقبضهـما..

حيـا الكندّاكـة، التـي اعترتهـا رهبـة غامضـة، لا تـدري مصدرهـا، عندمـا وقعـت عينيهـا عـلى عينيـه المرحبتـين، اللتـين طوّقتـا وجههـا في هـدوء واطمئنـان..

انتظرتـه الكنداكـة أن يسـتهل حديثـه، فظـل صامتـا. كان بعينيـه لمعـان غريـب!.. لمعـان عميـق يفعـل فيهـا فعـل السِّـحر.. جـاء صوتـه بعـد برهـةٍ مـن الوقـت كصّـدى بعيـد:

"أتيـت لأُخلِّصّـك بمشـيئة المخلِّـص، مـن عبـادة الكبـش، لتصبـح مملكتـك بشـارّة الممالـك"

كانـت خواطـر الكندّاكـة المعتمِّلـة قـد هـدأت. قالـت بصـوتٍ آلي كالمسـحورة:

"أشرّح حديثك ايها الشيخ المبجل"

أخبرها عن البلاد البعيدة، التي جاء منها، وعن أنبياءٍ ورسُلٍ كُثُر..

اخبرهـا عـن عذاباتهـم وآلامهـم، والبـشرى (الخـبر السـار) الـذي جـاء يحملـه إليهـا..

حدثهـا عـن الكلمـة.. كلمـة اللّـه وحملهـا الـذي يزيـل الخطايـا، وتكلـم عـن خطيئـة العـالم..

تساءلت الكندّاكة عن العالم..

"ما هو العالم؟!"

فاتسعت إبتسامته المرحبة أكثر فأكثر.. وتخللتها بالصّفح والغفرّان، الذي يتحدث عنه وسلام المدن والبحار والأنهار والصّحارى والغابات.

حدثها عن اللّه روح الكون الموجود في كل شيء في الوجود.. و بدأت الكندّاكة تفهم معنىّ العالم الواحد، بناسه مختلفي الأشكال والألوان..

"مع ذلك.. لكنه واحد"

هكذا همست لنفسها.. والشيخ يحكِّي لها عن معجزات المخلِّص، الذي حوّل ماء العرس في"قانا" الجليل الى خمرّة جيدة، وأظهر مجده، وكيف أطعم خمسة آلاف بسمكتين وأرغفة شعير خمس، بعد أن عبر البحيرّة، ومشى على الماء، دون صرح ممرد..

حدثها عن السلام والعدل والاخلاق والقيم، والمثل والفقراء ملح الارض، فقالت:

"طوبى لهم"

كان الشيخ قد أشعل فضول الكندّاكة، فأفردت له حجرة في القصر، وأبقته ليحكِّي لها كل يوم عن الأنبياء، والرُّسل وبشارّة المخلِّص.

ويوماً بعد آخر، كان النّور يتسرب، ليملأ وجدان الكندّاكة المعتم! أصبح للكندّاكة هدف، بعد كل الذي فعلته بحياتها! اذ أخذت تفكر، في كيف تنشُّر هذه الرِّسالة، ليعمّ نورها العالم الذي تعرفه!

"أرسلي المبشرِّين ليجوبوا البلاد، بعد أن أعطيهم معرفتي"

"وحربي مع الجوار؟"

"ربما أرادها الرب أن تكون لنشر البشارّة"

"وهل أصلح لنشرها، وأنا كما تعلم؟"

كانـت الكندّاكـة؛ قـد حكّـت لـه عـن والدهـا الجرهمـي، الفتـى الغّـر الـذي خدعتـه أمهـا، ولم يُلاحـظ أبـداً العلاقـة السِّرِّيـة، التـي تربطهـا بالنّمـرود.. النّمـرود الـذي أنطلـت عليـه حيلـة سـاذجة، واضحـة وضـوح الشـمس دون أن يشـعر بهـا!

33

كان الجرهمي منذ طفولته.. يراقب نمو أعجوبة، وإثر كل يوم، يتنامى حبه لها ويزيد، حتى عميّت بصِّيرتِه.

لم يكن يُدرِّك أنها ليست له، هي التي حوصِّرَت بالعاصفة والبرق والرّعد، ولم تعد تنتمي لعالم الجرهمي، المنبسِّط كصّحراء أجداده، الذين تناسلوا مع الجنّ..

حكّت الكندّاكة عن قتلها الأنفس، ونهبها للأموال و إغترافها الخطايا.. مسح الشيخ رأسها وتمتم يعمدها بالماء المقدس، فامتلأ قلبها بالصفح والغفران!

ثم أخذ يحكِّي لها، عن النّاس في جبل الزيتون، وقد اجتمعوا عند الفجر، يتعلمون من المخلِّص، فجاءه بعضهم بإمراةٍ ضُبطت تزنِّي، يريدون إعدامها رجماً بشرِّيعةِ موسىّ، فقال لهم:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر" فاضطروا للانسحاب واحداً تلو الآخر، وبقى وحده مع المرأة التي خاطبها:

"أنا لا أحكم عليك. إذهبي ولا تعودي تُخطئين"

تنفست الكندّاكة الصّعداء، فهمت ما أراد الشِّيخ قوله.. كان النّور قد عمّ وجدانها..

34

اجتمع آري بولدِّين، بمجلسه السُلطاني، منهوباً بالقلق والتوتر. قال في غضب:

"تأخرت العيون و الرُّسل كثيراً في العودّة. لم يحضر أحد ليخبِرنا عن الكندّاكة؟!"

قال قائد الجيش:

"و ليست هناك أخبار، عن ما يجري معهم كذلك"

قال ملك العيون:

"اختفت العيون كلها من مملكة الحلفاء، ولم نعد نعرف لهم أثر!"

ثم أضاف باستياء:

"الأمر واضح وضوح الشّمس أن الكندّاكة، أسرت ماريانا وفوك، فدلاها على العيون التي يعرفانها"

اشتد غضب آري:

"كيف تجرؤ على أسر رسلنا اليها؛ ألم تسمع بانتصارِّنا الباهر على ساورا؟!"

قال قائد الجيش:

"انها الحرب آري"

فنهض آري وعيناه تقدحان بالشرّر، آمراً قائد الجيش:

"استعد للحرب إذن"

35

لم تكُّف الكندّاكة عن عقد مجلسها السّلطاني، لمتابعة أمور المملكة، واستعدادات الحرب وما يدور في الجوّار.. سألت النّمرود، الذي أجاب:

"عيوننا تمضي بخطىً حثيثة في التنفيذ"

"والنتيجة حتى الآن؟!"

"سُمِّمَت كل أفراد العشيرّة الملكية، الذين يخشى خطرهم.. خاصة القادة وملوك الحواضر، ولم يبق سوى آري نفسه، لكنه سما بطيئا غير ملحوظ، مفعوله يحتاج لوقت طويل!"

"ورجالنا الذين قاموا بهذا الأمر؟"

"اختفوا جميعهم، بعد التنفيذ، بعضهم في الطريق الينا، وبعضهم لا نزال، بحاجة لوجوده هناك"

"وآر ي؟"

"يجدون صعوبة كبيرة، في اختراق مطبخه، فهو لا يأكل إلا من يد إيابأسِّي زوجته"

"ما أن يصّل رجالنا، الذين أنجزوا مهامهم، أُوكِّل لهم بأمري، قيادة فرُق الجيش، وأكمل معهم استعدادات الحرب.. وآتني بالأخبار أولاً بأول"..

36

للمـرّة الأولى يشـعر بولدِّيـن بالإلتيـاع، وكل هـذا الحـزن، وهـو يـرى كبـار قادتـه، يموتـون الواحـد تلـو الآخـر، يومـاً بعـد يـوم. بعـد أن تتهـرأ أجسـامهم وتتفسّـخ!.. والعشـيرّة الملكيـة يسـقط أفرادها..ملـوك حواضرها.. قـادة جيشـها.. بـذات الطرِّيـق.. في البـدء مـن انهـا لعنـة.. وبـاء.. إلى أن خطـر لـه خاطـر:

"إنه السُّم!"

قال آري بولدين بحزن عميق..

نقّـب الجنـد والعيـون في أرجـاء المملكـة، وقلبـوا عاليهـا سـافلها! ولم يعـثروا عـلى أثـرٍ، يدلهـم عـلى واضعـي السُّـم..

لم يكـن حينهـا قـد تبقـى مـن العشـيرّة الملكيـة، سـوى آري بولدِّيـن ووليُّ عهـدهِ الوحيـد. ضرب آري بولدِّيـن الجـدار بقـوّة:

"لابد أنها الكندّاكة. لا أحد سواها يجرؤ على مثل هذا الفعل!"

"ولماذا لا يكون الفاعل من ساورا، التي قضينا عليها؟!"

"لا.. انها الكندّاكة.. قلبي يحدثني انها الكنداكة.. لقد باغتتنا!"

قال أحد الحكماء وهو يضِّيف:

"إنهـا اللعنـة اري.. نصحنـاك بايقـاف زواج الاقـارب فهـو ملعـون، لكنـك لم تسـمع، وقبـل أن تحـارب سـاورا نصحنـاك آري، أن لا تفتـح أبـواب الحـرب، فالمنتـصر مهـزوم! وأخبرنـاك بمـا قالتـه النجـوم عـن علامـات الأزمنـة!"

أضاف آخر:

"الحـرب عندمـا تبـدأ، لا أحـد يسـتطيع إيقافهـا، أو توقـع مـا يحـدث فيهـا"

تدخلت إيابـاسِّي:

"لم تترك لنا الكندّاكة الآن خياراً سوى الحرب"

والتفتت إلى آري:

"أم تريـد أن تتراجـع عـن ُحلُـم أجدادنـا؟!.. إذا قـرّرت التراجـع سـأتولى الأمـر بـدلاً عنـك؟!"

نظر إليها في غضب:

"آري حفيد الجد الأكبر دودو، لا يتراجع أبداً عن أمرٍ بدأه!"

التفت الى القائد الجديد للجيش:

"ليبدأ الجيش في الزحف منذ الصباح الباكر"

"الجيـش بحاجـة لرفـع معنوياتـه أولاً.. الإغتيـالات هزّتـه تمامـاً.. خاصـة أننـا لم نتمكـن، مـن القبـض، عـلى الذيـن قامـوا بهـذه الاغتيـالات!!"

"مـاذا سـأفعل للجيـش، أكـثر مـن سـجنّي لملـك العيـون؛ الـذي قـصّر في أداء واجبـه، في حمايـة المملكـة مـن المدسوسِّـين، وفشـلِّ في قيـادة عيونـه، والقبـض عـلى القتلـة، قبـل أن يغترفـوا جرائمهـم.. مـاذا أفعـل للجيـش أكـثر مـن ذلـك؟"

"لنتريث حتى ينقضِّي موسم الحصاد، ومجيء القوافل"

"لقد أعلنت الكندّاكة الحرب، ولن تتريث"

"أعلـم أنهـا قوِّيَّـة بمـا يكفـي؛ لكنهـا ليسـت أقـوى منـا.. ويجـب ألا نغامـر"

نظر اليه آري برِّيبة:

"مع من أنت؟ معي أم مع الكندّاكة؟!"

تراجع القائد الجديد للجيش، وهو يهزُّ راسه في دهشة:

"سأُنفذ ما أمرتني به آري"

أوقفه بولدِّين قبل أن يمضِّي:

"كانت ساورا، أعظم كثيراً من الحلفاء؛ وأنا من قضّى عليها.. الزحف صباحاً"

كرّر آري عبارته الآخيرة بحسم..

وقتها كان فوك والنّمرود. ينهيان آخر تدريبات الجيش الضخم، الذي أبقياه، على أهبة الاستعداد، على حدود المملكة..

37

مـن قلـب الفنـاء، الـذي يتوسّـط المدِّينـة المقدّسـة سـاورا، جـاء الصّـوت عميقـاً مبحوحـاً ومتحشرجاً:

"الى ساورا جاء الغزاة"

عندمـا أقـترب الغـزاة مـن سـاورا، تفقـد بييـه الفتيـات الملكيـات.. وسـأل:

"أين شبونة؟!"

فأجبن بصوتٍ واحد:

"لا ندري!"

فقاد بييه الفتيان الملكيِّين الأربعة الى خارج أسوار ساورا..

38

عندما هجم الغزاة على ساورا، كانت شبونّة مع صولمنج في الكّهف.. خلف الدّغل عند الجرف الصّخري.. عشّهما الذي لطالما التقيا فيه.. فكّ صولمنج عن شبونّة غلالتها.. كان وقع حوافر الغزاة، لكأنه يشعل فيهما مواجداً لا تنتهي!

كانت الشّمس تجرجر أزيالها، في الأفق البعيد؛ وثمة ضوءْ شاحب، يُلقّي بظلاله على الكّهف، الذي أختبأت فيه نيردِّيس وساوْ، الذي ابتعد عن جسدها مرتاعا، وهو يتبيّن في الخطىّ القادمة شبح نبتة:

"عليك اللعنة نبتة. أخفتينا!"

قالا في صوت واحد؛ فضحكت نبتة في صهيل ملتاع، ردّد صداه الكّهف..

"نبتة، ألم أقل أن نلتقي صباح الغد؟!"

"لم أستطع الإنتظار، ماذا لو فعلت كما يفعل اري مع نسائه"

تسآلت نيردِّيس، التي عقدت زراعيها على صدرها:

"كيف؟!"

"لا تكوني غبية.. أنت تعرفين كل شيء.. ألم تعلمينِّي أنت ما علمتك إياه ماريانا، جارية آري؟!"

طوقهم صمت عميق. قطعته نبتة وهي تنتقل بالحوّار:

"ألم تسمعا بنبؤة دالي.. بفناء ساورا؟!"

"انه يهزِّل! ساورا جنَّة الحياة"

قالـت نيردِّيـس وهـي تجلـس شـبه عاريّـة، عـلى حجـر سـاوْ، فأسرعـت نبتـة تجذبهـا وتقـول:

"أليس لديك صبر؟"

"ألم تجدي لكوَّي ّرجلا بعد؟!"

"إنها لا ترغب في رجل سوى بييّه!"

"لكن بييّه يحب لنقي!"

"هــي مثلهــا لا تريــد رجــلاً ســوى ســورِّنقْ" "فلتنتظــرا إذن، إلى أن يصيبهــما الجفــاف!"

ضحكت نبتة بخلاعة، كفتيات أتنّي البيضاوات:

"رأيتهما مراراً في الدُّغل، مع قرود الطَّلح"

"ماذا تعنين؟!"

"أعنــي مــا أقــول.. الغربــاء جعلــوا النــاس يكتشــفون أشــياء مذهلــة؛ نحــن اليــوم لســن كأســلاف آري.. أجدادنــا"

"النّـاس الآن في سـاورا يعيشـون حياتهـم، كـما يريـدون؛ حتـى الأغـراب يأتـون الى سـاورا، ينفضـون وعثـاء الطّرِّيـق والمنفـىّ"

"ولذلك دورة لا يفتأ يخيف الناس، بفناء ساورا الوشيك"

39

كان دورّة الراعـي العجـوز، والـد سـورنق، قـد تخـلى عـن الكهانـة، وامتهـن رّعـي الجامـوس والأغنـام.. ولا يفتـأ يـردد لـكل مـن يصادفـه في طريـق العـودة إلى سـاورا:

"تحالـف المجرمـين مـع شـعب سـاورا، سـيفنيها..لم تعـد سـاورا هـي ذاتهـا التـي نعرفهـا.. لا محالـة لعنـة لا تبقـي ولاتـذّر، سـتحل بنـا"

40

قلبت شريط الكاسيت، وأنا أوقف ود الباهي (بإشارة من يدي) ريثما أدخل شريطاً جديداً.. زفرت بعمق، وأنا أرى مؤخرة المدينة الشاسعة، التي كانتها جلابي ود عرّبي يوماً، وهي تتمدّد على شريط النِّيل!

الفردوس الآن تغتسل كسابا الفارعة، من ذكريات آخر لياليها البهيجة مع سورنق.. تقف سابا أعلى الّتل ترقبه، وهو يمضّي بعيداً، يتضاءل شيئاً فشيئاً.. حتى يستحيل إلى نقطة صغيرّة، في أُفق رحيب.

نقطة في صحراء لا متناهية.. ويذوِّي كانطفاء جمرة. يتلاشى ليكون الغياب، في الفضاء اللامتناهي، حيث ساورا تخرج من أعماق ود الباهي، تنضّو عنها ذكريات يوم آخر في الفجيعة، وترقب قادماً من بَوح أحزانها.. يجدد أفراحها ويشرِّعها للقادمين من غياهب سحيقة، لأزمانٍ قادماتْ.. ليخطوّن مدينتهم الجديدة، وليحيا سورِّنقْ في الذّكريات.. ذكريات لنقِّي الحبيبة.. الصّبية الصّغيرّة التي تكبر يوماً بعد آخر، وتتفتح كالطبيعة في الخرائف المثمرّة، عن أفواف الزّهر والثّمر الحلو، وربما تتفتح كالطبيعة، عن الورود والأزهار الشوكية السامة، والاعاصِّير والزوابع الأنثوية الخالدة في قصص العشاق..

"أين اختفيت الأيام الماضية سورِّنقْ؟!"

"اعتزلت مع أبي العجوز دورّة.. يقول أنه يجب أن ابتعد عنك"

"لماذا ؟!"

"أنت الآن امراة صغيرة؛ وأنا أصبحت شاباً"

"ألهذا السبب فقط؟"

أحتوت ببصرِّها البرِّيق الغامض، الذي يشِّعُ من عينيه:

"أنت تخيفني سورنق!"

"إهدأي لنقِّي"

"لم أعد أفهمك"

"سأرحل؛ وعندما أعود سأكون آري مهاباً، سأبني لساورا سوراً ضخماً؛ عالٍ من الحجر! وأضعُ الحرّاس على أبوابه، وأكتب على جدرانه أسرار الكبش المقدّس. سينِّير مجد الكبش ساورا، في ليالِ الشتاء الطويلة، ويدفئها..

وسيأتيها الغرباء الذين يهربون الآن منها.. نعم سيعودون وتحميهم مرةً أخرى، من جور الأهل والأوطان..

ستظل ساورا مفتوحة، ولن تغلق أبوابها أبدا، إلا في الليل، فالليل لا يأتي عليها.. سأحمل إليها كنوز الممالك الأخرى وامجادها، ولن تمضي بغير شريعة الكبش"

"لا أفهمك سورِّنقْ!"

كان سورِّنقْ يبدو غريباً على لنقِّي، غريباً على أقرانه، الذين لم يعد يجالسهم، مكتفياً بصحبة دالي إبن آري شقيق لنقِّي. والاعتزال معه لأوقات طويلة، في محراب الكبش، أسفل المنحدّر الصّخري خلف الهضبة، التي يدفن في سفحها الأطفال..

الفتيان الملكيين كانوا يهابون سورِّنقْ، الذي كان يبزَّهم منذ الطفولة الباكرة، في الرّكض والصراع وتسلق الأشجار كالقرد، كانوا لا يتجرأون على إزعاجه أبدا، بمؤامراتهم الصغيرة، التي يحيكونها ضد بعضهم البعض..

الفتيات الملكيات في أُنوثتهن الطِّفلة، كنّ يتعمدن اللهو معه دونهم جميعاً، ويبتعد عنهن ليلهو مع لنقِّي وحدها. يغرن منها، ويبدين

كراهيتهن له دون تحفظ، ومع ذلك ظل سورِّنقْ فارس أحلامهن منذ الصِّغر، كلما كبرن يرّين جواده الأبيض ينأى ويبتعد.. قالت نيردِّيس:

"سورِّنق لا يشبهنا؛ فهو ليس إلا إبن راعي جاموس"

رمتها لنقِّي بنظرّة حادة:

"لا تنسي أن أُمه من العشيرة الملكية، وان هذا الراعي كان كاهن ساورا"

"إنه لا يحب النّاس. يرى نفسه أفضل منا و من الفتيان الملكِّيين. ثم أن تكون أمه ايا باسي شقيقة آري، مثل ام كوّي وشبونة، فذلك لا يكفي. فسورِّنقْ من أب ليس من دّم آري على عكسنا.. ولا تنسى أن آري القادم هو شقيقنا (دالي)، وليس إبن الرّاعي العجوز دورّة" صمتت نيردِّيس فجأة، كأنها تتذّكر شيئا، ولم تعلِّق لنقي.. تغيّر عمق عينَّي نيردِّيس، وهي تحاول أن تجوس في أعماق عيني لنقِّي:

"اسمعي لنقِّي. بيبه يقول أنك تهربين منه!"

تدخلت نبتة على نحوٍ مباغت:

"اسمعي أنت نيردِّيس. لنقِّي تحب سورِّنقْ وتكرّه بيبه، أي جزء من هذه العبارّة غير مفهوم؟!"

أضافت كوّي:

"لماذا لا تتركينها وشأنها، دائما تلاحقينها ببيبه؟!!"

ابتسمت نيردِّيس في خبث:

"يبدو أنكنّ وقعتن في غرام بيبه فجأة!"

تدخلت شبونّة التي ظلّت صامتة طوال الوقت:

"نيردِّيس، لقد ظللت لفترة طويلة تتدخلين في شئوننا، كلنا.. لن نسمح لك بعد الآن، بمثل هذا التدخل!"

قالت في حدّة، فنهضت نيردِّيس غاضبة:

"ستلجأن الىّ كالعادة، عندما تقعنّ في المشاكل، تذكرن ذلك جيداً!"

ضحكت شبونّة بسخرِّية:

"مشاكل أكبر من لو أخبرت دالي، بما تفعلينه مع ماريانا؟!"

التفتت في حدّة:

"لكنكن تفعلن ذلك معي!"

"سننكر جميعا كل شيء؛ ووحدِّك ستقعين في المشاكل، ألم تعلمينا أنت كل شيء؟!"

أطل التساؤل من عيني لنقِّي:

"ما الذي تفعلنه مع جارية آري؟"

تراجعت نبتة:

"لا شيء. فقط نريد إيقافها عند حدِّها"

والتقت نظراتهن في صمت وتواطؤ.. فتجربتهن مع ثرثرّة لنقِّي، بإحساسها الدائم بالخوّف منذ الطفولة الباكرّة، علمهن أن يخفين عنها اسرارهن، التي كانت تعلم بعضها بطريقتها الخاصة، ولا تجعلهن يشعرن بانها تعلم.

كانت ترغب في ألا تكون جزءً من عالمهن، فاكتفت بالعلاقة الحميمة، التي تربطها بكوِّي..

41

كان الضجيج في بهوِّ العرش قد بدأ يتعالى، فصمتن ثم بدأن يتفرّقن، في حجرات القصر الكبير، بعيدا عن بهوِّ العرش، الذي أزدحم برجال المملكة، الذين بدوا منشغلين على غير عادتهم، أكثر من أي وقتٍ مضى..

التفوا في مجلسهم حول آري، الجالس على (ككرِّه) بمهابة. وقد بدت على وجهه علائم التفكير العميق.

ران الصّمت لفترة ليست قصيرّة، وتلاشى الضجيج شيئا فشيئا.. جاء صوت آري حاسما وهو يقلِّب بصره في حاشيته، موجها حديثه الى حاكم الحاضرة الجنوبية الغربية، من مملكة ساورا المقدّسة:

"ستأخذ معك أبناء العائلة المقدّسة، هذه المرّة ليتدربون، على فنون القتال تحت إشراف (الأورنانق) بحاضرتك"

"سيشرف عليهم حكام المقاطعات آري؛ فقد جئت بالأورنانق الى هنا"

"اذن على الاورنانق أن يتصِّل بالحاضرة الشمالية، ليرسل كل شبان حاضرته اليه"

استأذن كبير خدّم القصر فسمح له آري:

"ماذا هناك؟"

"حاكم الحاضرة الشمالية، يستأذِن ويعتذر عن التأخير"

"ليأت"

ابتدر قائد القوافل الحديث:

"نحـن عـلى أعتـاب سـنوات جـدب، وأرى إذا سـمح آري، أن يأمـر بـأن تتـولى (إياكـوري) تخزيـن الطعـام والإشراف عـلى إنتـاج (الحواكـير)"

"لقـد أوكلنـا هـذه المهمـة للقضـاة؛ ورُمـاة المـدى وحامـلي السـيوف، سـتشرِّف عليهـم إياكـوري"

قال ملك حاملي السيوف:

"أخـبرني ملـك سـائسي الخيـل؛ بمـا تحدثتـم بـه آري.. في أن الجـوار يعبـئ جنـده؟!"

"لم تردنـا أخبـار جديـدة أُخـرى. ربمـا تكـون وجهة.جُنـد الجـوار. مملكتنـا المقدسـة؛ ولذلـك أرسـلنا الى حلفاءنـا وطلبنـا منهـم العـون والمجـيء الى سـاورا.. وأرى أن يهتـم حـكام المقاطعـات؛ بإجـراء الإحتياطـات اللازمـة للدِّفـاع عـن سـاورا، إذا كانـت نيّـة الجـوار مهاجمتهـا"

ومـضى آري يرتـب مـع مجلسـه الحاشـد، شـؤون مواجهـة الجـدب والحـرب المحتملـة، وعندمـا أنهـى حديثـه صفـق فيهـم بيديـه لينصرفـوا:

"عليكم موافاتي بكل ما يطرأ"

تـرك آري الأمـر لرجالـه، ومـضى مطمئنـاً، الى أحضـان محبوبتـه ماريانـا، مكتفيـاً بتلقـي الأخبـار عـن طريـق (كتركـوا) الخـصِّي المسـئول عـن ماريانـا جارِّيتـه المفضلـة!

وأخذ"كتركـوا يـصرف الحـكام والقـادة؛ دون أن يدعهـم يلتقـون آري، الـذي كان قـد أنـزل همـوم المملكـة عـن عاتقـه، ووضعهـا عـلى ظهـر رجالـه، وتفـرّغ لمحظياتـه وجواريـه.

42

وبعـد مـرور وقـت طويـل.. طويـل جـدا، جـاء سـورنق إلى سـاورا الخـراب..

"أخيرا وصلنا"

أشـار سـورنق بيـده، مـن عـلى صهـوة الجـواد؛ فتوقـف الركـب خلفـه.. توقفـوا جميعـا يحدقـون في الـوادي المترامـي الأطـراف، بعيونهـم المتسـعة دهشـة!

ومـع ذلـك شـعروا جميعـا لحظتهـا، بحنـين وشـجن بعيـد، يشـدهم إلى هـذه الأرض. نزلـوا مـن صهـوات جيادهـم، وتفرقـوا حـول مجـاري الميـاه، يغسـلون وجوههـم، مـن وعثـاء السـفر الطويـل. طوقـوا بأبصارهـم الـوادي، الـذي بـدى شاسـعا، كأنـه يمتـد في اللانهايـة، ليلتقـي بحافـة السـماء متناهيـة البعـد..

عـلى إمتـدادات الـوادي، بـدت أكـمات متفرقـات هنـا وهنـاك.. مدّغِلـة وساحرة!!

أشـار سـورنق لبييـه، فتوغـل الآخـير في الأكـمات، يتبعـه خمسـة مـن الجنـد الأشـداء..

هـواء الـوادي البـارد، لطّـف نفوسـهم العليلـة برهـق الجفـاف، وإنهـاك الوبـاء الغامـض.

خراب ساورا والترحال، المضني أسابيع وأيام طويلة!

هـواء الـوادي المنبسـط، ينعـش الوجـوه المرهقـة، التـي أضناهـا فـراق الأحبـة والغيـاب، الـذي خالـوه.. لأيـام الشـجن الوديـع..

قلّب سورنق بصره في الوادي، رغم ترحاله في طرق عديدة، منذ هرب في تلك القافلة، هو الخبير بالقوز، في شبه الصحراء عبر مالحة، قريباً من جبل الميدوب. حيث الطرِّيق العرِّيق لتجارة الملح. لم يجد أبدا في حله وترحاله مثل هذا الوادي!

طوّق سورنق الوادي ببصرِّه المنهك؛ وكان قد أتخذ قراره! وخُطّط العمران، ترتسم في عقله المكدود. الذي بدأ يستفيق، وتتجدد حيويته هناك؛ على أمتداد هذا الجبل؛ الذي يبدو كما لو أنه الكبش الإلهي المقدس، بظِلِّه الملقى على السهل، كأنه فروة تظلِّل الوادي من الهجير. وبقمته المشرعة: ذروتين تبدوان ككفي العجوز دورّة، لحظة التضرع بالدعاء الحار.

كأن دورّة هو الذي يجلس، على إمتداد هذه القاعدة، مرتديا عباءة رسولية مهيبة، يدعو لساورا الجديدة بالمجد والخلود..

قطع عليه الكاهن دورّة، الذي كان قد تخلى عن الرعي واسترد وظيفته القديمة، تأملاته:

"ظلت الطبيعة هنا تمنح أجدادنا هويتهم.. خصبهم.. خصب الكبش المقدس. هنا أستقر الكبش وأسلاف دالي، في وقت سحيق.. غادرها اجدادنا الثلاث بعد وفاة والدهم آري دالي الأول، وبعد أن اجتاحها الوباء، تفرقوا يشيدون ممالكا جديدة، لكن ظل حنين العودة إليها مشتعلا، لا تنطفيء جذوته المتقدة!

تنهد سورنق بعمق:

"وهنا سيشيد البناءون قصر آري، على هذا التّل، الذي تحتضنه أقدام الكبش، ستكون مدافن آري، والى يسارها سينحت ساو من عروق الحجر، خصيتي الكبش، رموز الخصوبة، ويقين تجدد الحياة!

هزّ المبجل دورّة رأسه في رضا وانسحب، كانت حوافر جواد بييه

لحظتها تقترب، تدخل في خطط سورنق وخواطره، تتدخل في حبل أفكاره:

"أنها مليئة بالحيوانات المتوحشة"

قال بييه، ففرك سورنق بيديه:

"ليس ثمة أكثر توحشا من النّاس، سنستأنس

منها ما نستطيع، ونطرد الباقي"

وواصل حديثه:

"هنا سيشيد سورنق مملكة أخرى؛ بدلاً عن ساورا المهجورة. هنا سنبدأ من جديد. في أرض ميعادنا، التي غادرها الاجداد، لكن ها نحن عدنا اليها، لتتواصل مسيرة الأجداد وتستقر أرواحهم الهائمة اخيرا، في وطنهم الأم!..

هيا ليبدأ الجميع في تعميرهذه الأرض! وأنت أيها القائد بييه.. اذهب الى المملكة المهجورة وآتِ بالباقين"

"الآن؟!"

"نعم الآن. اذهب"

وانطلق بييه يتبعه عدد من الجنود في رحلة طويلة شاقة. رحلة إلى ساورا..

التي كانت تعاني الجدب، ثم ما لبثت أن انهارت تماماً، بعد أن دهمها الغزاة وخربوها.. قتلوا آري وأستحيوا النساء، وهدموا المعابد.. ونهبوا قطعان الجاموس.. التي لم تنفق في المحل والجفاف. قضوا على كل ما تبقى، من مجد ساورا ومضوا..

43

منذ ترك كتركوا الإهتمام بإياكوري منذ وقت طويل، إستجابةً لأمر آري، بأن يعطي جل اهتمامه لماريانا. لم تعد إياكوري تهتم بالحصول على العطر البرّي..

كانت محاصرة، بذكرى تلك اللمسات البديعة، لأنامل كتركوا الخصي، وهو ينقل أنامله المدربة، على تضاريس جسدها المتحفز، ويدلّكها بأعشاب البرّية النديانة، وينتف الزغب شعرةً فشعرة، هكذا كان يهيئها ويعدها لآري كل مساء..

حتى لحظة انتحارها، عندما دهم الغزاة ساورا واستباحوها، كانت لا تزال تشعر بتلك اللمسات، وذلك الدفء الذي يخلخل كيانها، ويجعلها تهتز كرِّيشة في مهب الرِّيح، بين الوعي واللاوعي.

وفي النزع الأخير، أحست بتلك الحالة من التوهج، التي يعقبها انطفاء وخدّر وخوّر، عقب التنهدات اللاهثة، والتأوهات الخابية.. فارقت إياكوري الحياة، وهي راضية عن نفسها! ومرضية عليها!

على الرغم من وجه ماريانا! فقط وجه ماريانا، الذي ظل يحدق فيها، من موقع بين عالمين، يلاحقها بنظرات آخر الوجوه البغيضة، إلى نفسها!

قبل أن تنهار ساورا بقليل، نشط حفارو القبور؛ وصانعو الأثاث الجنائزي؛ وبعد أن خرّب الغزاة ساورا. هرب من تبقى من الغرباء، الذين هجروها، هربا من الجدب وخوفا من الحرب.. هربوا في سباسب الصحراء ووهادها؛ لا يلوون على شيء!

كان شعب ساورا يتناقص بالحسرّة والجوع، والوباء الغامض يحصِّد

الأرواح سريعـا، سريعـا دون رحمـة! كأن مـا حـدث لمملكـة الجبـل و الـوادي القديمـة، يتكـرر مـرةً أُخـرى في سـاورا..

الوبـاء الغامـض أضطـر الغـزاة إلى المغـادرة سريعـا، واضطـر الغربـاء للجـوء الى الجـوار. وعندمـا جـاء سـورنق، لم يجـد سـوى بقايـا سـاورا وأحزانهـا، التـي تدفـع الشـيوخ للتفكـير الحـازم، في إنقـاذ مـا تبقـى مـن شـعب سـاورا!

فأرسل سورنق الرُّسُل ليستكشفون الأراضي البعيدة..

44

لا يـزال دورّة يذكـر تلـك الأيـام البعيـدة، وسـاورا قـد بـدأت تنهـار، تحـدث وقتهـا مـع دالي طويـلاً، ونصـح آري فاختفـى دالي وتـلاشى كفـص الملـح، وأنشـغل آري بنسـائه العديـدات..

في تلـك الأيـام لم يكـن خاطـر دورّة منشـغلا سـوى بأحـوال المملكـة، التـي كان يـرى ضياعهـا رؤيـة العـين، فحـكام الحـواضر والقـادة، لم يعـد أحدهـم مهتـما بإبـلاغ آري بمـا يجـد مـن أمـور، وانصرفـوا مثلـه إلى ملذاتهـم!

كانـت الحيـاة في المملكـة تتعطـل، وآري لا يهتـم، أرسـلت إياكـوري زوجـة آري في طلبـه، فلبـى متكاسـلا، ليخبرهـا بمـا وصـل إليـه، في شـأن تعليـم الفتيـات والفتيـان الملكيـين، الذيـن كانـت تخطـط لهـم دورا، في انتـزاع القـصر مـن هيمنـة، الجـواري، والمحظيـات والخصيـان، كيـما تعـود سـاورا إلى سـابق عهدهـا، مملكـة للمجـد! سـألته إياكـوري:

"كيف يمضي إعداد الفتيات والفتيان؟!"

"شارّف على الإنتهاء"

"أحوال القصر تسؤ دورّة!"

"بل أحوال المملكة كلها"

"أين تركت الفتيات الملكيات؟!"

"في سومنق"

"يبـدو أن نيرديـس خرجـت مـن هنـاك، دون أن تراهـا. فقـد جـاءت إلى هنـا قبـل قليـل"

"انها متمردة، إياكوري"

نـادت إياكـوري عـلى نيرديـس المراهقـة، ذات الجسـد المتحفـز، أتـت نيرديـس مطأطـأة الـرأس!

نظـر دورّة في عينيهـا.. أعـماق عينيهـا بحنـق.. ابتلعـت ريقهـا، وهـي تتذكـر تلـك اللحظـة، التـي سـبقت مفاجأتـه لهـا: هـي وبييـه في حجـرة فـوك الملحقـة بالحانـة..

قبلهـا بأيـام، كانـت قـد جاءتـه تركـض في فـزع، والـدّم يسـيل عـلى فخذيهـا، كان وقتهـا يجلـس وحـده في سـومنق. فهدأهـا وهـو يقـول مبتسـما:

"لا تجزعـي يـا صغـيرتي.. اهـدئي.. لقـد أصبحـت إمـرأة. كل النسـاء يحـدث لهـن ذلـك. سـتمر أيـام قليلـة، وتعوديـن نظيفـة، دون ألم، كـما كنـت دائمـا، إذهبـي الآن الى إياكـوري و أخبريهـا!..

قبلهـا، لم يكـن دورّة منتبهـا للتطـورات، التـي بـدأت تعـتري أجسـاد الفتيـات الملكيـات! وجسـد نيرديـس بصفـة خاصـة!

45

تنهد دورّة بعمق، وقلقه يتنامى، فالرسل الذين أرسلوا، لاستكشاف المناطق المجاورة، لم يعد منهم أحد. والأحوال تزداد سؤاً.

كان الرسل قد غابوا لشهور عديدة، خالها الناس سنوات ودهور. طال الغياب وزحف اليأس، يقنط النفوس المنهكة، وعندما رأى الناس أول القادمين من الكشاف، استبشروا خيراً. و ركضوا بنفاد صبر، لسماع الأخبار الجيدة، التي يمنون أنفسهم بها.

توالى الكشاف واحدا تلو الآخر، يحكون عن محصلة رحلاتهم المرهقة، وفي كل مرة يشعر سورنق والناس بالخذلان.

لكن ظل الشيخ دورّة يهديء النفوس القانطة، ويحاول أن يبعث فيها الأمل من جديد، بحكمته النافذّة، ويصِّرُ على الحكي عن أرض موعودة.. أرض الأجداد التي لم تصورها حكايات الرسل، الى أن جاء بييه بعد مضي وقت طويل، وأخذ يصِّف أرضا بعيدة، خالية إلا من وحوش البرِّيّة والأدغال، تجري فيها المياه العذّبة، وتنتصِّب الصخور في صورّة الكبش! أرض كأرضهم تماما قبل أن تصيبها لعنة الغرباء، الوافدون من خلف البحار العظيمة، فتجف وديانها وتصاب بالمحل، ويدهمها الوباء الغامض، ويتسلط عليها الغزو الساحق لمملكة الجوار!

لتتحوّل في لمح البصر، إلى قبور متراكمة، وبيوت مهجورة، وهياكل تمشي على قدمين!

وبينما أنشغل الرّاعي العجوز دورّة، بإعداد الفتيات الملكيات الخمس، لممارسة السلطة المباشرّة على القصر، بعد أن أنهى إعداد الفتيان الملكيين الأربعة، لطرد نفوذ المحظيات والجواري، اللاتي سلبن

عقـل آري، فصـار يتخبـط ولا يفعـل شـيئا إزاء الخـراب، الـذي بـدأ يحـل بالمملكـة. أخـذ يراقـب الفتيـان الأربعـة، منسـحبا مـن إنشـغاله بالفتيـات الخمـس شـيئا فشـيئا، فنبهتـه نيرديـس:

"أبا دورّة.. نريد أن نمضي لنرتاح"

التفت اليها في هدوء:

"كيـف ترتـاح مـن اختـيرت بعنايـة، لتكـون زوجـة إلهيـة، وممثلـة للسـلطة بـين كهنـة الكبـش وآري؟!"

وقتها كان آري قد جمع نساءه، وأجلس إياكوري إلى جواره.

كان مهـدوداً ومنهـاراً. لأول مـرّة يشـعر بالخـذلان، كـما يشـعر بـه الآن! وتحـدث في حـزن عميـق:

"حـكام الحـواضر أصبحـوا يتجـرأون عـلىّ. لا يهتمـون بأننـي آرى سـليل الكبش المقـدّس!"

تنهدت إياكوري في عمق:

"لقـد جلبـت ذلـك لنفسـك آري. إهمالـك لأمـور المملكـة؛ جعلهـم يتجـرأون عليـك. لقـد فقـدت هيبتـك"

التفت اليها بحدّة:

"آري لا يفقد هيبته أبداً"

قالت بهدوء:

"الجـوار يعـد جيشـاً، بينـما القـواد لم يفعلـوا شـيئا مـما أمرتهـم بـه.. القـواد والحـكام منشـغلين بمحظياتهـم وجواريهـم. الـلائي هـن أهـم مـن تنفيـذ أوامـر آري!"

قالت ذلك وهي ترمي ماريانا بنظرّة متأففة.. ردّ عليها بغضب:

"سأعزلهم جميعا!"

"لست في ظروف تسمح لك بذلك. الوقت غير مناسب. ثم أنك يجب أن تجد دالي أولاً و بمساعدة الفتيان الملكيين، يمكنك استرداد هيبتك. هيبة ساورا.. لكن قبل كل ذلك يجب أن تعود الأمور إلى نصابها. هنا في هذا القصر" نظر آري الى إيا كوري في ألم، ثم ألتفت إلى ماريانا. نهض فتبعته وهي ترمي إياكوري بنظرّة شامتة!

46

غـاب الرّاعـي العجـوز دورّة مـرّة أخـرى، حيـث الفتيـان الملكيـين، وتذكـر سـورنق: إبنـه الوحيـد، الـذي اختفـى ذات صبـاح بعيـد!

نشـأ سـورنق محبـاً للعزلـة والانطـواء، ميـالاً للتأمـل والأحـلام الكبـيرة، لم يكـن تـرك أبـوه للكهانـة والعـودّة للرّعـي في ذلـك الوقـت يروقـه، لشـدِّ مـا أنـف عـن الرّعـي وحلـم بإرتيـاد الآفـاق البعيـدة.

ظلـت أحلامـه تكـبر معـه يومـا بعـد آخـر.. أحلامـه بعبـور الصحـراء الشاسـعة، ورؤيـة مـا تخفيـه خلفهـا مـن عـوالم جديـدة، والوصـول الى ذلـك البحـر البعيـد، الـذي يفصـل بـين عالمـين: عـالم السـافنا والمسـتنقعات والصحـراء، وعـالم آخـر غامـض ومجهـول!

وذات صباح شاحب أختفى سورنق، مثلما اختفى دالي من قبل.

أختفـى سـورنق مبـاشرّة، بعـد أن أُجريـت لـه طقـوس الرجولـة. هـرب مـع إحـدى القوافـل الماضيـة مـن سـاورا إلى طريـق الملـح، منتهـزا فرصـة أن عـرض عليـه قائدهـا الجرهمـي اصطحابـه، وتعليمـه التجارة وفنـون الحياة. كان التاجـر عبـد اللّـه الجرهمـي رغـم محظياتـه وجواريـه العديـدات، لم ينجـب سـوى تلكـما التوأمتـين مـن أعجوبـة، التـي اختفـت مـن حياتـه منـذ وقـت طويـل، تاركـةً لـه سـابا، التـي نشـأت في كنفـه نشـأة غريبـة، إذ كانـت ميالـة للوحـدة والتوحـد، منـذ طفولتهـا الباكـرة!

تمـضي خلـف جبـل الميـدوب، فتحـضِّر إليهـا الجنيات ثمـار غريبـة، تأكلها بسـعادة غامـرة، فتشـعر بنفسـها قوِّيـة وخفيفـة، تملؤهـا طاقـة غامضـة!

تلهـو معهـن وتعـود في المسـاء، إلى مهجعهـا دون أن تكلـم أحـد. قـال العـرّاف لأبيهـا:

"إبنتك مأخوذّة بجنيات الجبل. روح جدتها التي حبسها سليمان الحكيم في (سواجن) وأنقذها ذلك الصّياد وتزوجها.. هذه الرّوح ترافقها الآن.

كانت سابا متوحشة وشرِّسة. تقاتل كرّجل، عندما يقترب منها أحدهم أو يتحرَّش بها. كانت كالحُلُم المستحيل، لأقرانها المبهورِّين بجمالها الساحر.. ذلك النّوع من الجمال الفريد الذي لا علاقة له بالبشر.

وعندما رأى التاجر ذلك البرِّيق؛ في عينَّي سورنق. تلك الرّغبة العميقة في المجهول، والتي لا تخطئها العين المدرّبة. ذلك الشيء اللامع، الذي كان يُقلق الرّاعي العجوز، كلما رأى أقران سورنق، فتأكله الحسرّة وتتجددّ في أعماقه الأحزان.

كان بييه، ساو، صولمنج وكوري أقران سورنق يكبرون أمام عينيه يوماً بعد آخر. يتخطّون مراهقتهم، ويهيجون عليه الذّكرى، التي لا تفارقه أبداً. ذكرى ذلك اللمعان القلِّق، في عينَّي سورّنق، الحبيب الغائب.

عندما يرى ساو وهو يصنع من عروق الحجر تماثيلاً دقيقة لشبونة، يتنهد:

"سورّنق افضل منه"

ويتعلق بصرّه بصولمنج.. بقسماته الهادئة، في عزلته المحببة المهيبة، يتعبد في محراب الكبش، ويقدِّم القرابين للطبيعة..

"لو كان سورنق موجودا لدخل يتعّبّد للآلهة" ويتأمل كوري المغرّم بصنع الطبول الصّغيرّة، ويتذّكر كيف يُحضِّرَّها في المهرجانات، ويُنصِّبها على مبعدّة من ضاربي الطبول، ثم يقرّع بإيقاع وديع يخلخل القلب، ويرعِّش السِّلسِّلَّة الفقرِّيَّة..

لو كان سورّنق موجوداً لترفع عن ذلك..

وعندما يصرّع بييه أقرانه في لهوِّهِم البريء، يتأوه الرّاعي العجوز في ألم..

"آه سورّنق، أنت أقوى منه.. أين أنت يا بني

بعينيك شيء يسحبك بعيدا وعميقاً"

ومنذ اختفاء سورّنق، في ذلك الصباح البعيد، أخذ الآباء يشددّون الرقابة على أبنائهم، أن يتخطّفهم التجار والغرباء، فيصبحون مثل الرّاعي العجوز دورّة، يلوكون الحسرّة والأسى والأسف..

الوحيدون الذين كانوا يعلمون كدورّة، أن سورّنق لم يختطف: هم أقرانه الفتيان الملكيين.. كانوا عندما يجتمعون بعيداً عن القصر، بين الأكواخ أو قريباً من حقول الذُّرة والفول والسمسِّم، أو في جنايين الموالح.. يتذكرون سورنق إبن معلمهم الرّاعي العجوز، الكاهن دورّة.. لم يحدث أبداً أن نسوه، رغم مضي سنوات عديدّة، منذ أختفى بغموض (فمثله لا ينسى!) في ذلك الصباح الشاحب الذي فقدت فيه الشمس بهاؤها!

أراد سورّنق أن يحقق أحلامه.. أن يجوب الآفاق ويتعلم أكثر.. ويعرف..

قال ساو فعلّق بييه كأنه يطرد طيف سورّنق، الذي يشِّل تفكيرّه:

"لقد اختارك آري مثالا ملكيا ساو"

" ... ..."

علّق كوري بخبث:

"لكنه لم يعد ينحت سوى الفتاة شبونة!"

قاطعه بييه في حزم:

"إحذّر كورِّي ولا تنسى أنها فتاة ملكية"

وعقّب صولمنج في هدوء:

"والفتيات الملكيات مقدسات، لا يتزوجن. وأن تزوجن ليس لأزواجهن سلطة عليهن.. هكذا علمنا الكاهن العجوز دورّة"

"تقصِّد الرّاعي العجوز"

قال ساو ووجه يتعكر ثم أضاف:

"أنتم تتحدثون كثيرا، كأنني لا أعرِّفُ عنكم شيئا. أنت يا كورِّيّ تختلي بنبتة كثيرا، ولقد رأيتك أنت كذلك يا صولمنج برفقة نيرديس، و رغم ان القصر يعدك روحيا، لتكون كاهنا ملكيا هل تصدِّقون الكاهن صولمنج، يحب فتاة ملكية، وأنت ايها المصارع بييه، هل أتحدّث عن فتاتك؟!"

تعكر وجه بييه:

"ماذا تعني بحق الكبش؟"

"أليست لك علاقة غامضة بنيرديس، وفي ذات الوقت تلاحق شقيقتها لنقي.. شقيقة دالي؟!"

ردّ ساخرا:

"لا؛ لم يحدث ذلك. لقد أخطأت، فالتي تلاحقني هي كوِّي"

"أنا لم أتحدّث عن التي تلاحقك. بل عمن تلاحقها أنت؟!"

قاطعه بييه:

"انت ترميني بما ليس فيّ. أنت تكذِّب. لأنك تحسدني؛ لأنني اصرعك دائماً، الوحيد.."

قاطعه:

"وكذلك أنت الوحيد، الذي له علاقة غامضة مع عامل حانة أتنّي!!"

كان بييه الوحيد بين شبان ساورا، الذي يُسمح له بدخول حانة أتنّي!

عندما دخل أول مرّة، أهتم به الغريب الأبيض فوك، أكثر من أي شخص آخر، وسقاه الخمر بسخاء غريب!

فظل بييه منذها يتردد على الحانة، واصبح وفوك كالأصدِّقاء القُدامى، رغم فارِّق السِّن ولغة فوك المتعثرّة..

أخذّه فوك ذات مرّة إلى غرفته الملحقة بأتني، وأتى بالخمر المعتق.. شرِّبا كثيرا حتى غابا عن الوّعي!

عند الفجر أفاق بييه ووجد نفسه عارياً! نظر حوله. كان فوك ايضا عارياً. إرتدى إزاره بعجلة. وهجم على فوك يضرِّبه حتى أدماه.. ظل فوك صامتا يبتسم في سخرِّية، وكأنه لا يشعر بألم الضربات، التي أستمر بييه يوجهها إليه كيفما أتفق..

"ما الذي فعلته بي؟!"

"لم أفعل بك شيئا. إنها الخمر، هذا النّوع.."

استرد بييه خواطره وهو يمسك بآخر كلمات صولمنج.

"وكلنا يعلم منذ طفولتنا الباكرة، أن لنقي تحب سورّنق. ألا تذكرون كيف كانت تغضب، حينما لا تجده معنا. فتركض بعيدا إلى ما وراء الحقول، حيث مراعي الجزو. تبحث بين الجاموس والأبقار عن سورّنق، إلى أن تجده. كنا نجلس مع بعضنا البعض، ونلهو إلا سورّنق ولنقي. دائما يبتعدان عنا. يتهامسان ويضحكان في رنين ينتزع العشب من فم الجاموس، و يجعل الأبقار تنسى أجتر ارها وخوارها فتصهل!

47

تمـدّد آري عاريـا في مخدعـه، حاولـت ماريانـا، أن تنسـيه همومـه وأحزانـه، لم يأتـه أحـد بأخبـار دالي ولي عهـده، وأحـوال سـاورا تسـوء كل يـوم، أكـثر عـن اليـوم الـذي سـبق. وهـو مشـوّش لا يـدري مـاذا يفعـل.

"إنـس يـا حبيبـي كل همومـك، فأنـت معـي الآن.. معـي. مـع حبيبتـك ماريانـا.. إنـس كل شـيئ ولا تتذكـر شـيئاً سـواي"

كانـت كلماتهـا تهدئـه. ترتخـي أعصابـه، ويشـعر بصّفـحٍ وغفـران فيبتسِّـم.. فتداعبـه ماريانـا، وهـي تتمتِّـم بـين لحظـة وأخـرى:

"ستبقى قوياً آري.. ستبقى لأجلي.."

الأيـام تمـضي ببـطء؛ في غيـاب سـورّنق. والبهـاء الـذي يشِّـع مـن حواضر المملكـة السِّـت، يخبـو شـيئا فشـيئا، وذلـك البرِّيـق السـاحر لسـاورا يتضـاءل، ومـع ذلـك تضـاف الى قـصر آري مبـانٍ حجريـة جديـدة، فـالأسرة الملكيـة تكـبر، وقـد آن الآوان لإعطـاء الفتيـات الملكيـات والفتيـان الملكيـين حجـرات خاصـة بهـم، بجواريهـا وعبيدهـا.. حجـرات منفصلـة وبعيـدة عـن حجـرات أمهاتهـم..

الأمطـار غـيرّت مواعيدهـا منـذ عـدّة مواسـم، وبـدأت علامـات الجـدب تتضـح شـيئا فشـيئا، خـشى النـاس الخطـر، الـذي يتهـدد حقـول الـذُّرة والفـول والسمسـم..

النباتـات البرِّيـة الوحشـية، بعضهـا لم ينبـت في السـنوات الآخـيرة، والقوافـل التـي تجـيء الى سـاورا مرتـين في العـام قلّـت كثـيرا.. وصـارت مثـل الأمطـار تـأتي في غـير مواعيدهـا..

عندمـا تهطـل الأمطـار الشـحيحة، تصيـب الأرض والنـاس بـشيء مـن

الخصـب. تتوالـد الماشـية لكـن ليـس كثـيرا كـما مـضى.. تنمـو الـذُّرة، لكـن ليســت شــاهقة كــما كانــت.. يجــدد النــاس إزاراتهــم الصّــوف والجلــد بالكتـآن، لكـن ليـس القطـن و الغـلالات الناعمـة، التـي أصبحـت ذكريـات تنتمـي إلى مـاضي سـاورا الزاهـر..

48

الذيـن يرتـادون حانـة أتنّـي الكبـيرة، في قلب سـاورا، عددهم يقِّـل.. لقد ولى زمـن الخصـب الوفـير الـذي يريـح البـال و تتنامـى معه الأحـلام الكبيرة!

في ذلـك الصبـاح البعيـد، غامـرت نيرديـس بدخـول مخـدع آري، بعـد أن تأكـدت مـن خروجـه الى غرفـة الككـر.

كانـت متلهفـة لمعرفـة: لمـاذا تريدهـا الجاريـة الفارعـة البيضـاء ماريانا، التـي منـذ وطـأت قدماهـا أرض سـاورا حتـى لم تعـد الأشـياء هـي الأشـياء، إذ أحدثـت وفـوك فرقـاً كبـيراً في كل شيء..

كان كل مــن في القــصر قــد انقســموا إلى قســمين في موقفهــم مــن ماريانـا: قسـم أعجـب بهـا كثـيرا (الرجـال) وقسـم يشـعر تجاههـا بحقـد عظيـم (النسـاء).. لكـن كل القسـمين كان يتحـدث عـن سـطوتها عـلى آري للدرجـة، التـي جعلتـه لا يقـرب جواريـه ومحظياتـه ونسـاءه.عزف عـن الجميـع وولـع بهـا وحدهـا.

منذهـا أشـتعلت النـيران، في قلـب إيـا كـورِّيّ، التـي أخـذت تحـاول وسـعها اسـترداد مكانتهـا، في قلـب آري، دون أن تصيـب شـيئا مـن النجـاح.

وقفـت نيرديـس إلى جانـب البـاب بتلصـص، ولم تشـعر بوقـع خطـى ماريانـا، إلا وهـي تقـف أمامهـا وتضـع يدهـا عـلى كتفهـا:

"أدخـلي لا تخـافي فلـن يـراك أحـد. خشـيت ألا تحـضري. طلبـت مـن كتركـوا أن لا يطلبـك، إليّ إلا إذا رآك وحـدك..

"إياكورِّي لن ترضى عني؛ لو علمت أنك طلبتني"

"لـن تعـرف أنـك جئـت إليّ. كـما تريـن أنـا هنـا وحـدي، أريـدك أن تكـوني صديقتـي"

"... ... ..."

"لا أحـد يحـضر إلى هنـا.. إيـا كـوري حاصرتنـي وحرضّـت نسـاء آري ضـدي!"

"آري هـو الـذي منـع الفتيـات الملكيـات؛ مـن دخـول هـذا الجـزء مـن القـصر. لمـاذا طلبتني؟!"

"لأتعـرف إليـك. لقـد أصبحـت في سـن إمـرأة صغـيرة؛ تؤهلـك لمعرفـة الكثـير"

كانـت نيرديـس قـد أصبحـت أنثـى مكتملـة، منـذ أيـام قليلـة فقـط.. حديـث دورة الراعـي العجـوز إليهـا وحديـث أمهـا، أشـعلا في رأسـها أفـكاراً غامضـة، وأوقـد في نفسـها فضـولاً خابيـاً، منـذ وقـت طويـل..

"لماذا لا تجلسين؟!"

كانـت نيرديـس باديـة الـتردد فجذبتهـا ماريانـا، مـن يدهـا بلطـف. أجلسـتها عـلى الدّكـة الملتصقـة بالمخـدع وجلسـت.

"أنت إبنة آري وإياكوري الصّغرى. أليس كذلك"

"أنا تؤام لنقي، ونبتة تكبرنا"

ثم أطرقت نيرديس برأسها.. ثم تلفتت في قلق تجاه فتحة الباب.

"لا تخافي. لا احد يأتي الى هنا. وآري منشغل بمجلسه"

ثم نهضت:

"سأعلمك أشياء جيدة آن الأوان أن تعرفيها"

"أي أشياء؟"

"إنها أشياء تخص النساء"

استبد بنيرديس الفضول، سحبتها ماريانا من يدها دون أن تترك لها فرصة، لتجيب ومضت بها إلى حجرّة داخلية مجاورة، وأغلقت الباب ثم أسدلت ستارا كثيفا، بعد أن أجلستها على مخدع الغرفة..

49

قال ساو:

"أحلم بساورا كلها مبنية من الحجر، بدلاً عن هذه الأكواخ"

"هل جننت؟!"

قال بييه ثم أضاف:

"أتريد أن تساوي النّاس بنا.. تريدهم أن يصبحوا ملكيين؟!"

"أليسوا شعبنا؟!"

قاطع صولمنج بييه ثم أكمل:

"أما أنا سأصنع طبلا كبيرا. أكبر من الطبل المقدس، ليكون بديلاً عنه!"

تدخل كورِّي:

"دعونا من كل ذلك الآن"

"ألا توجد أخبار عن دالي. ألن يعود.. ؟!"

"كيف يعود وقد خرق آري العرف.. حتى أن دورّة تخلى عن الكهانة بسبب ذلك.. إستبدل آري الأم القوية إياكوري بمحظية لعوب، يقول دورّة أنه استمرأ خرق العرف، و لا يأبه للجوار الذي يعد الجيوش لمحاربتنا"

"الجميع يتخلون هذه الأيام عن الأعراف!"

"ماذا تعني؟!"

"ألم تفكر أنت في مساواة الأهالي بنا.. ألم تفكر في استبدال الطبل المقدس؟!"

"أحذر بييه؛ ستجلب لنا اللعنة!"

"اللعنة حلّت منذ فقد آري سيطرته؛ على أمور المملكة. ولم يعد لنا دور يذكر في مملكة ساورا!"

خيّم عليهم الصمت لفترة، فقطعه ساو محاولاً تغيير مجرى الحديث:

"أنتم لا تفكرون بصورّة صحيحة. يجب أن نصرف اهتمامنا لرد هيبة ساورا، فحقنا في الملك، لا يقل عن حق دالي فيه.. كما أنه بالاختفاء الغامض لدالي، نكون نحن الورثة لعرض اري، وعلينا التصرف على هذا الأساس!"

نظر بييه إلى ساو في خبث:

فقال صولمنج:

"استطاع دالي التمكن من الحروف، وحكمته لا تخفى على أحد لو كان موجوداً؛ فهو أحق بالعرش من غيره"

قال كوري فقاطعه بييه:

"أنتم تتحدثون وكأن آري لم يعد موجودا!"

فعلق كوري:

"نحن نتحدث عن المستقبل؛ ولا نعني الوقت الحاضر. كما أنني أعرف جيداً، أن دالي زاهد في العرش. لقد أفسده الغرباء الذين كانوا يجالسونه لأوقاتٍ طويلة!"

"لكنهم مكنّوه من معرفة أشياء كثيرة"

"الغرباء كانوا يأتون فقط لبيع مقتنياتهم العجيبة. لقد أفاد من سورنق.."

"بل سورنق هو الذي أفاد منه"

تغير وجه بييه:

"كل ذلـك ليـس مهـماً الآن. يجـب أن نفكـر في تـدارك الأوضـاع، فالمملكـة تتهـاوى! نحـن لم نعـد صغـار، ويجـب أن يكـون لنـا دور!"

قاطعه كوري:

"لكن مهم أيضا أن نعرف لماذا وأين أختفى دالي؟!"

"نبتة تقول أنه غضب من كون أبيه؛ ألعُوبة في يد ماريانا"

"بل قل ألعوبة في يد كل المحظيات و الجواري والخصيان!"

"المحظيـات البيضـاوات الـلائي جلبهـن لـه التجـار؛ مـن خلـف البحـار البعيـدة؛ هـنّ أسـاس المشـكلة"

"أرسـل آري الرسـل والمراسـيل؛ المحملـة بخـيرات سـاورا. الأمـر الـذي أوغـر صـدر الجـوّار.. الـذي أرسـل يحـذره، لكـن آري لم يسـتجب"

"مـال الجـوّار ومالنـا ان ارسـلنا الى حلفائنـا المراسـيل.. وشيء مـن خـيرات سـاورا أو لم نرسـل؟!"

"الجـوار يريـد سـاورا أن تعاملـه مثلـما تعامـل الآخريـن الذيـن يبعـد بعضهـم عنهـا إلى مـا وراء الأُفـق السـحيق.. يـرى نفسـه الأقـرب إلينـا في المسـافة والـدّم!"

"انهم يعبئون جيشهم يا صديقي.. كيف لنا أن لا نتوجس منهم؟!"

50

عندما دخل رسل آري مدينة الحلفاء. كانت رائحة الخراب تفوح من كل شيء.أستوقفتهم الأنغام الحزينة، التي تصدر من (زمبارة) أحد المغنين عند مدخل المدينة، و استمعوا باهتمام للشاعر الذي ينشد خلف الأنغام مأساة الحلفاء..

عندما أنهارت المدن القديمة بفعل الحروب، اجتمع ما تبقى منها وتحالفوا ثم تواضعوا على بناء مدينة واحدة كبيرة. اختاروا لها من بينهم حاكما يديرونها معه كمستشارين له.

نمّت المدينة وازدهرت، وأصبحت قوة لا تقهر. وإلى هذه المدينة الجديدة، جاءت المرأة بارعة الجمال أعجوبة.

فتنت الوزراء وقادة الجيش.. لعبت بقلوبهم وأفئدتهم، ولم يحظ بها أحد منهم أبدا ثم أختفت عجوبة.. غابت لسنوات عدة قبل أن تعاود الظهور مرة أخرى! فعلموا منها أنها عادت إلى موطنها في الشرق البعيد، لترعى إبنتها الوحيدة!

وكانت الكنداكة ابنتها آية المدينة الكبيرة؛ كعلامة لآخر الزمان، لم ترى مثل جمالها عين بشر.

جنّ الشعراء وفقد الوزراء هيبتهم، وكاد قادة الجيش لبعضهم البعض. مضت الأيام وخطّ الشيب على شعر أعجوبة رحاله، ووسمتها التجاعيد والأخاديد، لكن ظل شيء من الجمال القديم في المحيا و القامة، التي لم تنحنِّ.

وكلما أشرقت شمس الصباح، كان جمال الكنداكة، يغوِّر حنين الجراح، أكثر فأكثر ويشعل صبواتا لا أول لها ولا آخر!

كـبرت الكنداكـة إذن، وداعبـت في خيـال النـاس، ذكـرى ذلـك الجـمال البعيـد، الـذي عاشـوه يومـاً، وهـم يتذللـون تحـت قدمـي أعجوبـة، حتـى تـرضى.

تقـدم الـوزراء وقـادة الجيـش واحـدا تلـو الآخـر، يخطبـون منهـا الصبيـة البضـة، التـي سـلبت عقولهـم، وأشـعلت في وجدانهـم حماقـات آلآف السـنين..

ألهبهـم يفاعهـا وغصنهـا الميـاد، الـذي لم يـترك المغنِّـين جـزء فيـه لم يدبجـوا فيـه أغنيـة عارمـة الأوار..

وفي هـذا الجـو المشـحون بأهـواء الأشـواق، واشـتياقات الوصل، نسـجت أعجوبـة مؤامرتهـا، وأخـذت تقـول لـكل مـن يتقـدم لخطبـة الكنداكـة، أنهـا ترغـب في أن تزوجهـا لـه، ولكنهـا تخـشى هـذا الوزيـر أو ذاك..

وعندمـا أرسـل السـلطان في طلبهـا، زعمـت لـه أن قـواد الجيـش والـوزراء، هددوهـا وأمروهـا بـألا تقبـل بخطبـة الملـك لإبنتهـا..

وهكـذا أخـذ كل وزيـر، يشـعر بـأن الآخريـن، يقفـون أمـام حلمـه بالكنداكـة.. كـما شـعر السـلطان بالغضـب، تجـاه قـادة الجيـش والـوزراء. تنتابـه مشـاعر شـتىّ.

إذ اعتقـد أنهـم لم يعـودوا يهابونـه، و يتجـرأون عليـه، ناسـين أنـه آري المملكـة، ولا يقيمـون لـه وزنـاً. ولابـد لـه مـن اسـترداد هيبتـه التـي أهـدرت.

وهكـذا ردت أعجوبـة التحالفـات، التـي نهضـت عليهـا المملكـة إلى جذورهـا. فتمايـزت إلى مكوناتهـا التـي نهـض فيهـا التحالـف، واشـتغلت الأحقـاد القديمـة، والإسـاءات والمـرارات والاحـن والضغائـن المنسـية، واصطفـت الجماعـات ضـد بعضهـا البعـض..

قال المغني لرسل آري:

"أكلـت المدينـة الكبـيرة نفسـها، ليصفـو الجـو لحكـم الكنداكـة، التـي تزوجـت مـن أحـد الخصيـان!

51

نظـر الرسـل إلى بعضهـم البعـض، وقـرروا التراجـع إلى سـاورا بخفـي حنـين!..

كانـت المدينـة المقدسـة، تنتظـر مجـيء الرسـل، مثلـما تنتظـر الأمطـار، التـي مضـت ثـلاث سـنوات منـذ آخـر هطـول لهـا. جفـت الوديـان و أمحلـت الأرض، وأصيـب النـاس بالهلـع.

الغربـاء الذيـن كانـت أزقـة سـاورا، وحواريهـا تمتـليء بهـم هربـوا.. أتتّـي الكبـيرة، التـي تتوسـط سـاورا، نسـج فيهـا العنكبـوت شـباكه الآمنـة.. وسـكنته الخفافيـش والبـوم.. هجـرت أتتّـي ولم يعـد أحـد يرتادهـا.

عـمّ الضيـق أرجـاء سـاورا، التـي بـدأت تـذوي أكـثر فأكـثر، مـع مـشرِّق كل صبـاح جديـد.

صبـاح كل يـوم، يحمـل النـاس جثـمان طفـل أو طفلـين، فالوبـاء بـدأ بالأطفـال، الذيـن لم يبلغـوا السادسـة، و لم تُجـرى لهـم بعـد طقـوس التدريـب الشـعائري. فهـم ليسـوا كامـلي العضويـة في الجماعـة. ولذلـك يدفنـون في مدافـن مخصصـة لهـم، تحـت سـطح الهضبـة بعيـدا عـن مدافـن الرِّجـال بعـد أن يوضعـوا في أوعيـة الفخـار مقرفصِّـين..

أخـذ الوبـاء الغامـض ينتقـي الرجـال شـيئا فشـيئا، فنشـط حفـارو القبـور وصانعـو الأثـاث الجنائـزي أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى عـلى التاريـخ المجيـد لسـاورا، التـي عمتهـا الأحـزان الآن.. حتـى آري نفسـه بـدا مرعوبـاً، مـن هـذا الـذي يحـدث، و يستشـعِّر أن أيـام ساورا الآخـيرة قـد دنـت.. أفزعـه مـا أصابهـا، وهـو يـرى أيامهـا الجميلـة تـولى إلى الأبـد. كان يائسـا ومحبطـاً ومنهـكاً ومنتهـكاً حتـى النّخـاع!..

أصاب الجفاف الأشجار فصارت يابسة كالحة! الوباء الذي يحصد الأرواح، والوديان التي صارت، أمتداداً لصحراء قاحلة. الوباء لم يدّخر شيئا.

وتلك الأخبار التي تتواتر عن جيش الجوار الجرار، والرُّسل الذين لم يعودوا أبدا، تزيد النفس قنوطاً على قنوطها!

حاول آري ترتيب الأمور في المملكة! نشّط وسط جنده بعد أن أستيأس، من عودة الرسل ومؤازرة الحلفاء..

كان جيش الغزاة يقترب شيئا فشيئا من ساورا، عندما أجلست إياكورِّي لنقي على حجرِّها، وأخذت تداعب شعرها في حنو:

"ليس لساورا إياباسي سواك لنقي. أختيك ليست لديهما حكمتك، ودالي قد لا يعود. فمن لساورا غيرك. أنه أمر عظيم، لكن طاقتك ستحتمله. تستطيعين لنقي، و تقدرين على النهوض بشؤون المملكة. إذا دهم الغزاة ساورا، ولم نعد أحياء بقربك. يجب أن تعيدي بناء كل شيء اذا حدث المكروه.. عديني لنقي أنك ستحافظين على عرش أجدادك!

اقترب الغزاة أكثر فأكثر؛ فارتجفت قلوب الناس، وأهتزت الفروع اليابسة، وتشققت أرض الوادي القاحل وازداد اضطراب آري، فهتف بقائد الفرسان بييه:

"دع كل شيء واهتم فقط بحماية الفتيات الملكيات!"

"ألن أحارب؟!"

"نعم أنت والفتيان الملكيين، يجب أن تتم حمايتكم كما علمنا الأسلاف. يجب أن يبقى من يستمر لأجل ساورا"

"والفرسان؟!"

"سأجد من هو كفء لقيادتهم"

أعاد آري تنظيم جيشه من جديد. أكثر ما كان يُقلقُه، هو إمدادات حواضر ساورا السِّت، اذ لم تصل، رغم مضي وقت ليس بالقصير، ما أربك خُططّه! فساورا تحارب في أوقات عصيبة.. انهارت معنويات آري تماما، عندما تواترت الأخبار بأن الحاضرتين الشمالية والغربية الحدوديتين مع الجوّار، سقطتا في يد الجيش الغازي.. أسقط في يد آري!

"لكن كيف؟ جيشهم لا يزال يزحف! كيف؟!"

"لقد تعاون معهم بعض قادة الجيش ووزراء بلاط الحاضرة؛ كما أنهم أوكلوا مهمة إسقاط المدينتين لجيشين آخرين".

"والعيون؟ عيون ساورا؟ اين العيون؟!"

"إنها مسئولية كتركوا"

بحث آري عن كتركوا الذي كان كفص ملح وذاب! بكى آري كما لم يبكي من قبل. كانت ماريانا أيضاً قد اختفت! ربت دورّة على كتفه بحنو؛ وقالت إياكوري في لوم:

"لم تسمع كلام أحد"

التفت إليها دورّة في إستسلام:

"ليس هذا وقت اللوم"

تنهد آري المجروح المخان:

"ترى أين يكون دالي الآن؟ أنا بحاجة إليه الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى"

"لا تشغل بالك به. سيأتي. لا محالة سيأتي..

هـز آري رأسـه في أسـف وأسى. أطـرق إلى الأرض ثـم رفـع رأسـه ببـطء؛ وأمـر قـواده بسـحب الجيـوش مـن الحـواضر الأربعـة؛ المتبقيـة ومركزتهـا شـمال سـاورا.. المدينـة المقدسـة. لم يعـد أمامهـم الآن.. سـوى الانتظـار عـلى أبـواب المدينـة، لمقاومـة الغـزاة، فسـاورا لا تسـتطيع إختيـار الميقـات والمـكان للمعركـة الفاصلـة.

خرج آري في قيادة الفرسان، ليلتحق بالجيش شمال العاصمة!

فيما تداعت في هذه اللحظة بالذات الى ذاكرته، ماريانا بطيفها الساحر في تلـك اللحظـة الأولى.. تلك اللحظة التي دخل فيها كتركوا يعلن عن وجودها..

"قافلة قدمت من درب الأربعين؛ جاءتك بهدية"

"هدية؟!"

"تركها التاجر الذي جاء بها ورحل"

"لماذا لم يقابلني؟!"

"ربمـا لم يسـمح لـه حـراس القـصر، تنفيـذا لأوامـرك. فاختفـى. ربمـا يعـود مـرةً أخـرى"

"اهتم بها وبعد أن ترتاح آتني بها"

ولم يمـض سـوى أسـبوع حتـى دخلـت عليـه ماريانـا. وقـف مشـدوهاً. لم يكـن يتصورّهـا بهـذا الحسـن البديـع.

تمنـى لحظتهـا رؤيـة التاجـر، الـذي أتى بهـا ليشـكره. لكنـه لم يـرّه أبـداً، وبمـرور الوقـت كان قـد نسـيه. أنسـته ماريانـا كل شيء ولم يعـد يتذكـر شـيئا سـواها. ظـل طيفهـا الملائـكي السـاحر، لحظـة رآهـا لأول مـرة مسـيطراًعليه، حتـى وهـي بـين أحضانـه!

"اللحظـة التـي رأيتـك فيهـا، لم أرى أنثـى. كنـت أمامـي جـسرا بـين الشـجن واللوعـة. طيـف مـن اشـتياق أزلي.."

حـاول آري أن يطـرد طيفهـا، ويبعـث في الجنـد شيء مـن الحـماس والأمـل. لكـن الهزيمـة التـي جـاءوا يحملونهـا، معهـم مـن الحـواضر، التـي أخـذت تسـقط واحـدة تلـو الأخـرى. تحـت سـنابك خيـل الغـزاة وتركـع كالسـبايا والصبايـا المهزومـات، وهـن يقهـرن تحـت وطـأة الغـزو..

كانـت النفـوس متآكلـة آخـذة في الانهيـار المتسـارع، فلـم تتبـق سـوى سـاورا العاصمـة. والغـزاة يقتربـون. عـما قليـل ويكونـون عـلى أبـواب سـاورا.

الحلفـاء البعيديـن لم تـأت منهـم أخبـار. فالرسـل لم يصـل منهـم أحـد، وسـاورا تمـضي لتنمحـي مـن الوجـود بخطـى حثيثـة، وتكـون أثـرا دارسـا..

الشـائعات تضعضـع الجيـش المنهـار.. الشـائعات التـي لا يعـرف مصدرهـا أحـد، تتحـدث عـن قتـل الكنداكـة لرسـل آري:

"لحقـت بهـم خـارج المدينـة الكبـيرة وقتلتهم.رمـت بجثثهـم لطـير الفـلاة.. الشـائعات تتحـدث عـن اللعنـة التـي جلبهـا تجـار القوافـل، وتتحـدث الشـائعات عـن غضـب زوجـة آري.. إياكـوري الأم القويـة المقدسـة. وحسرتهـا.. ورفضهـا مفارشـته منـذ سـنوات عـدة.. بالضبـط منـذ جـاءت ماريانـا، و أخـذ يسـتخدم طرقـا غريبـة عليهـا في المخـدع فلفظتـه لهـا!"

الشـائعات تحـاصر الجيـش الموجـوع المتداعي..أرسـل آري لملـك الجوار، أن يتراجـع ويـترك سـاورا وشـأنها، فـرد عليـه بأنـه لـن يتراجـع، إلا إذا جـاءه آري صاغـرا، وركـع عنـد قدميـه وذرّى الـتراب عـلى رأسـه ونـاح مـرددا:

"أنا امرأة.. أنا امرأة.."

غضـب آري غضبـا شـديدا حتـى صـارت عينـاه بلـون الـدّم. أصـدر الأوامـر بالزحـف الـذي كان يـدرك أنـه زحـف اليائـس..

زحـف الجيشـان تجـاه بعضهـما البعـض.. اقتربا..اقتربـا.. ولم يتوقـف الزحـف أبـدا. أراد جيـش الغـزاة أن يسـتريح، لتكـون المعركـة في اليـوم التـالي. الـشرر الـذي يتطايـر مـن عينـي آري منعـه الإسـتجابة، فأصـدر قـراره المباغـت بالالتحـام..

حـارب آري ببسـالة أدهشـت أعـداءه، كان يقاتـل كألـف رجـل، ركبهـم الجـن السـود و شـياطين الجحيـم الحمـر. قاتـل ببراعـة وحـماس بالغـين، كأن مـاردا مجنونـا، فائـق القـوّة تلبسـه!..

قاتـل كـما لم يقاتـل أحـد مـن قبـل أو مـن بعـد، إلى أن اخترقتـه مدّيـة سـامة فأردتـه.

سـقط آري فارتبـك الجيـش وارتعـب.. سـقط القتـلى.. سـقط الجرحـى، وتفرقـت بقايـا الجيـش المهـزوم في السـهول الشاسـعة لصحـراء لا قلـب لهـا!

حمـل الغـزاة معهـم جثـمان آري، ودخلـوا بـه سـاورا المفزوعـة. كان النـاس ينتظـرون قـدرا غامضـا، حتـى أنهـم لم ينتبهـوا لإنتحـار زوجـة آري للوهلـة الأولى، مثلـما لم ينتبهـوا لإختفـاء الفتيـات والفتيـان الملكيـين!

عندمـا دهمـت جيـوش الغـزاة سـاورا، عـمّ الخـراب كل شيء! خـلى القـصر الملـكي.. الـذي لم يكـن فيـه سـوى بعـض الخصيـان و الجـواري، والمحظيـات والعبيـد، كانـت كل الكنـوز قـد اختفـت ولم يعـثر لهـا الغـزاة عـلى أثـر!

قتلت جيوش الغزاة كل من وقف بوجهها.

52

قبـل أن يسـتبيح الغـزاة سـاورا ، كان بييـه وسـاو قـد انسـحبا مـن مؤخـرة الجيـش. دخـلا المدينـة يبحثـان عـن الفتيـات الملكيـات. وجـد بييـه الفتيـات الأربعـة، فذهـب يخفيهـن في ركـن حجـري، خلـف الأكمـة الصخريـة في الـوادي القـصِّي، الـذي يجـاور سـاورا مـن جهـة الجنـوب، بينـما اختفـى سـاو بشـبونة في مكانهـما الأثـير..

53

عندما أفاق الذين تبقوا أحياء من أهالي حاضرة مملكة ساورا، من هول الهزيمة، تدافعوا يزحمون الفناء، الذي أخذ يزدحم أكثر فأكثر، بالنازحين من حواضر المملكة كلها، فامتلأت بهم المدينة الخراب، التي شغرت من سكانها الأصليين، واغرابها الذين هجروا أكواخهم منذ وقتٍ مبكر. قرر من تبقى من شيوخِ وكهنةِ ساورا تنصيب آري جديد، فتدخل دورّة:

"نحن لا نعرف مصير دالي حتى الآن.. خبر خراب ساورا؛ ومقتل آري ملأا الآفاق وقد يجيء دالي في أيُّ وقت. إذا كان لا يزال حياً بعد!"

أتى صوت نيرديس من قلب الجمع:

"لا تضيعوا وقتا؛ نحن بحاجة لآري، وبييه هو الأصلح لهذا الأمر، وإذا جاء دالي يتنحى بييه له"

قلّبوا أبصارهم بين نيرديس وبييه؛ الذي كان صامتا. لا تعبر ملامح وجهه عن شيء، قال أحد الشيوخ:

"نحن في محنة وهذا أمر سابق لأوانه.. سيدير ساورا مجلسا من الشيوخ، وبعضٍ من أفرادِ العشيرة الملكية، إلى حين عودة دالي، لقد استشرنا الكبش المقدس في ذلك.. سيكون جزء من هذا المجلس كل من تبقى على قيد الحياة من كبار رجال ساورا"

ثم ألتفت الشيخ إلى بييه وساو وصولمنج وكورِّي:

"نحن نثق بكم. فلا تفعلوا شيئا دون أن ترجعوا إلينا"

أضاف دورة:

"عليك يا ساو بتصوِّير الخراب؛ الذي حلّ بساورا على جدران المعابد.. وأنت بييه عليك جمع ما تبقى من الشبان وتدريبهم، واتركوا لكورِّي أمر الجمع الصبية في سومنق.."

قاطع صولمنج الشيخ دورّة:

"أنتم تنسون شيئا مهماً؛ ليست لدينا مقومات للبقاء هنا، وتعمير ساورا من جديد"

انسحب دورّة بخياله بعيدا، طفا على سطح ذاكرته، وجه وحيده الغائب سورِّنق..

"أنت تحلم كثيرا سورِّنق!"

"كل ما نفعله يا ابي في ساورا هو أحلام.. احلام ليس لدينا غيرها"

"ماذا قال لك دالي هذه المرّة؟"

"لم يقل شيئا. نظر إليّ عميقا ثم أطرق كنبيٍّ تؤرقه رسالة عظيمة.. غامضة لا يدري هو نفسه كُنهها!؟!"

"ماذا تعني؟!"

"دالي يخفي بين جوانحه أسرارا كبيرة"

"وكيف عرفت أنت ذلك؟!"

"عندما أسأله دائما يكرر: سيجيء الوقت الذي تعرف فيه كل شيء!.. و.. الأمر لا يتم بدونك!"

"إذن هو الذي يغذِّي فيك جنونك؟!"

"أيُّ جنون يا أبي. أنا لا أعرف حتى ماذا يعني!"

"لا؛ أنت تخفي عني شيئا سورنق. لن أُجبرك على الحديث. أنا أشعر بك. ما تفكِّرُ فيه مستحيل!!"

"في ماذا أفكر؟!"

"لن تصبح آري بالسهولة التي تتصوَّر!"

54

انعقـد في الأفـق البعيـد، غبـار كثيـف جعلهـم يتجمعـون في زعـر، مـن كلِّ أزقـة وحـواري سـاورا.. حـدق صولمنـج في الغبـار، الـذي أخـذ يقـترب شـيئا فشـيئا. و هتـف صولمنـج:

"أنهم الغزاة مرةً أُخرى!"

كان قلب دورّة قد انتفض بشدّة. أمعن بييه النظر:

"لا؛ ليسوا الغزاة.."

اقـترب الغبـار فتبينـوا خلالـه ثـلاث قوافـل كبـيرة؛ مـن الجـمال المحمّلـة، يتقدمهـا قائدهـا عـلى جـوادٍ أبيـض. اقتربـوا منـه. صرخ دورّة:

"سورنق!"

55

بعـد أن أنهـى الأهـالي احتفالهـم بعـودة سـورنق، اجتمـع الشـيوخ، وقـرروا أن يكـون سـورنق قائـدا للمجلـس، الـذي يديـر شـؤون سـاورا الى حـين مجـيء دالي. أو اختيـار آري جديـد، إذا اسـتمر غيابـه!

بـاشر سـورنق مهامـه في نشـاط محمـوم. وزع الأحـمال التـي جـاءت بهـا قوافلـه بنفسـه، عـلى الأطفـال والنسـاء والشـيوخ، وكان عندمـا ينالـه الإعيـاء يدخـل الى غرفـة دالي، يغمـض عينيـه ويرحـل في أسرار سـاورا.

كانـت الفتيـات الملكيـات مسـتاءات، مـن فـرض الشـيوخ لسـورنق قائدا عـلى الشـباب الملكّيـين؛ وللمجلـس الـذي يديـر سـاورا. قالـت نيردِّيس:

"لقد اشتراهم بأحمال الطعام التي وزعها عليهم"

تدخلت لنقِّي مستاءة:

"انـت دائمـا هكـذا نيرديـس. لقـد أنقـذ الأهـالي مـن المـوت. أعـرف انك تريديـن أن يصبـح بييـه آري.. لكنـه لا يسـتطيع أن يقـدم لشـعب سـاورا مـا يسـتطيع أن يقدمـه سـورنق. فالغـزاة لم يتركـوا شـيئا حتـى لنـا نحـن الملكيـين. وبييـه يعـرف ذلـك جيـدا.. وحتـى الان لا نـدري ايـن اختفـت كنـوز سـاورا، التـي بعهـدة آري الراحـل"

كان مجـيء سـورنق، قـد أحيـا الأمـل في النفـوس البائسـة.. صوتـه العميـق المؤثـر، و كلماتـه النافـذة تفعـل في جراحـات نفوسـهم فعـل البلسـم السـاحر. تشـفيها مـما ألم بهـا مـن مـرارات وآلام وأحـزان غائـرة، وتجعلهـم يشـعرون بالطمأنينـة. كان كلام سـورِّنقْ الهـاديء الواثـق الـدافيء يرمـم وجدانهـم ويأسرهـم ويجعلهـم يحسـون أن بالإمـكان مواصلـة حياتهـم، كـما في السـابق.. أيـام مجـد سـاورا المقدسـة!

مضت أيام عدة على وصول قوافل أخرى لسورِّنقْ، وكلما مرّت الأيام تزداد لنقِّي قلقا وتوترا.. تشتاق للقاء سورنق، ويحزُّ في نفسها أنه تزوج وأنجب كما اخبرها المبجل دورة، فتتراجع عن لقياه!

ظلت تتهرب من لقائه لعدّة شهور. كانت كلما مضت باتجاهه، لتحادثه تغيِّر رأيها..

قالت نبتة:

"لم يحفظ سورنق العهد لنقي. لا تأبهي له، الأفضل أن تستجيبي لبييه"

ردت لنقي بتوتر:

"لكنه لم يعاهدني على شيء!"

في اليوم التالي لوصول سورنق؛ كانت لنقِّي قد تحينت الفرصة مرة أخرى للإختلاء بدورّة الذي بادرها:

"أين أنت؟ سورنق يسأل عنك منذ عاد؟"

"عزمت في نفسي ألا ألتقي به؛ إلا بعد أن ألتقيك"

"ما الذي يدور برأسك؟"

"هل أنت متأكد أنه تزوج في غيابه الطويل؟"

أطرق دورة قليلا؛ تفكر عميقا وهو يزفر ببطء:

"نعم لنقي.. لقد كان.."

ركضت لنقي مبتعدة؛ لم ترغب في أن تسمع أكثر.. واخذت تصر منذها على تحاشي الإحتكاك بسورِّنق، تعاني احتراقاتها وحدها في صمت وتوتر مؤلمين..

أصرّت شبونة:

"حتى لو لم يعاهدك؛ كان لزاما عليه ألا يتزوج وبينكما ما بينكما من حب منذ الطفولة!"

هزّت كوِّي رأسها:

"انتم تحمِّلون الأمور فوق طاقتها؛ لنقي هي الاولى.. انها ابنة آري.."

أضافت شبونة:

"كلام كوِّي صحيح. يجب ألا تهتمي لنقي بزواجه من تلك الغريبة؛ التي لم نراها ولا نعرف عنها شيئا، فهو لك وسيظل لك.."

قالت نيرديس التي كانت تراقب حوارهم في استياء:

"اسمعي لنقي أمامك أحد خيارين فقط. إما أن تتزوجي بييه، وهو الذي سنساعده كلنا ليكون آري، واما ان تتزوجي سورنق، بشرط أن يترك الغريبة، ولا يأتي على ذكرها. وفي هذه الحالة أيضا لن نتركه يجعل من نفسه آري علينا.. فنحن نريد بييه"

وسرحت نيرديس في خواطِرِها؛ بعيدا الى تلك اللحظة؛ التي فاجأها فيها الشيخ دورة مع بييه في غرفة فوك الملحقة بأتني..

كانت بعد لم تمض سوى أيام قليلة على لقائها بماريانا.. نقل دورّة بصره بينها وبين بييه.. صفع بييه بقوة على وجهه، ثم سحبها من يدها ومضى بها إلى سومنق، ثم أخذها بعد ذلك إلى القصر.

كان كلاهما مرعوبا، فاعتكفا بعيدا عن عيون دورة و تجنباه لأيام عديدة إلى أن اصطادهما وتحدث إليهما طويلا..

"لم أخبر أحدا بما رأيت، على ألا تعودا إلى ذلك مرة أخرى"

أشد ما كان يقلق سورنق هو لقاءه المتوقع بلنقي، التي أزعجه تجنبها له كل هذه المدة.

دخل عليه الشبان الملكيين، وأخرجوه من عزلته.

سألوه عن الوديان والسباسب والوهاد والصحراء الشاسعة، وما خلف البحار البعيدة.. سألوه عن أشياء لا حصر لها، فحكى كل شيء منذ لحظة هروبه في تلك اللحظة، من ذلك الصباح الشاحب، إلى أن جاءه خبر خراب ساورا..

ثم أنهى سورنق حكاياته قائلا:

"سيطرنا الآن على المجاعة؛ لكننا لا نستطيع السيطرة على المحل والجفاف والتصحر!"

"الأحمال التي جاءت بها القوافل الآخيرة؛ شارفت على الإنتهاء"

ارسلت في طلب الذّرة والكتان والقطن، لكن ليست تلك هي المشكلة، فالخراب الذي حلّ بساورا حطم ما تبقى من الناس، ولذلك علينا أن نرحل بهم، من هنا ليبدأون حياتهم من جديد"

قال سورنق فقاطعه بييه:

"كيف نهجر أرض الأسلاف وننزح عنها سورنق؟!"

"الأرض كلها للآلهة؛ والأسلاف معنا أينما ذهبنا"

خيم الصمت على الوجوه الشاحبة؛ صعب عليهم إبتلاع أمر الرّحيل، لكن خشيتهم من تخلي سورنق عنهم للموت والوباء كانت أكبر. الهزيمة التي ضعضعت النفوس، جعلت للخراب طعما أكثر مرارة من الحنظل. قال ساو بحسم:

"نعم يجب أن نهجر هذه الأرض. ساورا لم تعد هي ساورا. كل شيء هنا سيذكرنا بالهزيمة"

قال بييه:

"انهـا ليسـت المـرة الأولى؛ فسـاورا دخلـت في حـروب مـن قبـل، انتـصرت وهزمـت لكنهـا لم تغـيِّر أرضهـا"

أكد سورنق:

"لكـن ليـس طـوال تاريخهـا؛ تتعـرض وديانهـا للجفـاف. وناسـها ومواشـيهم للوبـاء!. لـو أصرّ النـاس عـلى الاسـتمرار بالبقـاء هنا. سـيموتون. كـما أن دالي يريـد للنّـاس الرّحيـل. أخـبرني ذلـك.

أشرع الجميـع عيونهـم وقلبـوا أبصارهـم. في بعضهـم البعـض . أضـاف سـورنق بحسـم:

"نعم جاءني دالي في خلوّتي. وأخبرني أنه علينا الرّحيل"

تداولـوا الأمـر بينهـم، ثـم عرضوه على الشـيوخ صبـاح اليوم التـالي. قلّب الشـيوخ والكهنـة الأمـر في أذهانهـم مـن كل وجوهـه، ومضـوا إلى المعبـد يستشـيرون الآلهـة. غابـوا لأيـام في عزلـة تامـة ثـم جـاءوا فتحـدث دورة:

"لقـد فوضنـي الشـيوخ والكهنـة بالحديـث عنهـم، سـنعود إلى الأرض التـي جئنـا منهـا في البـدء"

اتسعت عيون الجميع دهشة:

"الأرض التي جئنا منها؟!"

"نعـم جـاء أسـلافنا مـن مملكـة الجبـل والـوادي، جبـل الكبـش التـي بـدأت، تتكـوّن بإتحـاد غامـض في الأزل بـين الإلـه الكبـش وروح الـوادي. شـكلا معـا المملكـة المهابـة. عـلى أرض الـوادي الخصِّيـب. حيـث ينتصـب الجبـل العظيـم آري ,ليُطِّـل عـلى الجـوار كلـه مـن عـلٍ.. يطِّـل عـلى الدّغـل والسـهل والقيـزان.

شـهد الأسـلاف ولادة الجبـل، في روحهـم وروح الجبـل فيهـم. وهـذه المملكـة التـي صـارت خرابـا (سـاورا) مـا أنهـارت إلا لتقديـس البعـض

للقـط حـارس مملكـة الأمـوات وتركهـم عبـادة الكبـش المقـدس..

انفصلـت سـاورا عـن روح الكبـش، لتؤلـف مع القـط مملكتهـا الهالكة.. في مشـورَّة الآلهـة أن دالي سـيجيء، ويشـيد مـرة أخـرى ساورا..سـيبعث مملكـة الجبـل مـن قلـب الـوادي.. مـن روح السـلف الهائمـة (دالي المختـار منـذ الأزل) للحقيقـة والنظّـام.

خيـم صمـت عميـق، عـلى الوجـوه المنهكـة. غرقـوا في الدهشـة والرّهق. أضاف دورّة:

"لقـد سـقطت مملكـة الجبـل والـوادي؛ في زمـن سـحيق. كانـت قـد تضافـرت عليهـا، دفعـة واحـدة عشـائر الغربـاء والمحـل والوبـاء القاتـل، ووحـوش البرِّيـة. أنهـار كل شيء دفعـة واحـدة. مثلـما حـدث لسـاورا. فـضرب الأسـلاف في الآفـاق إلى أن وجـدوا هـذا المـكان، الـذي أنشـأوا عليـه سـاورا. كان أجدادنـا نحـن الشـيوخ المعمرِّيـن، بعـد لم يضـع أجدادهـم بـذور آبائهـم في أرحـام أمهاتهـم. انـه زمـن بعيـد.. بعيـد.. بعيـد جـدا...

مـدّ أحـد الشـيوخ تاجـا مـن العـاج، نقـش عليـه الكبـش رمـز القـوّة والخصوبـة. أخـذ دورة التـاج بيـد، ووضـع اليـد الأخـرى على رأس سـورنق، وأخـذ يتمتـم:

"انـه قائدكـم لمملكـة دالي الجديـدة. باركـه الشـيوخ والكهنـة. باركـه دالي إبـن الكبـش والجبـل روح سـاورا القديمـة روح الجبـل القديـم الحـي أبـدا.. انـه ابـن دورة الراعـي لشـعبه.. الكاهـن المعلـم.. أمـه أخـت الملـك الكـبرى، ابنـة الكبـش المقـدس. انـه سـيدكم.. سيشـيد مملكـة دالي لشـعبه العظيـم. آمـين"

هتف الكهنة والشيوخ خلفه:

"آمين"

وضع دورة التاج على رأس سورنق:

"ستقودنا منذ الآن؛ إلى أرض الأسلاف.

كان الجميع ينظرون الى بعضهم البعض؛ ويطرقون رؤوسهم ويقلِّبون وجوههم في حيرّة وقلق. تنتهبهم الأحاسيس والأفكار الغامضة؛ دون أن ينبسوا ببنت شفة"

قال سورنق:

"صِف لنا أرض أسلافنا الأوائل أبا دورة" نحت الشيخ دورّة ذاكرته. هوّم بخلاياه؛ نقّب بعيدا بعيدا.. أغمض عينيه.. هدأت أنفاسه وأنتظمت، وأخذ يصِّف ببطء سهلا شاسعا، تتخلله المجاري والوديان والقيزان والجبال المتفرقات، والأكمات والادغال..

انطلق الرسل يبحثون عن هذ المكان؛ إلى أن جاء بييه ذات يوم غارقا في الغبار والحر:

"وجدت أرض الاسلاف سورنق"

"أهي جميلة؟!"

"لم أرى أجمل منها من قبل.."

وحكى بييه لسورنق كيف أن قلبه خفق بشدة؛ عندما وطأ أرض الوادي..

النقوش التي في جدران ذلك الكهف.. الذي تنحدر المياه من مكان ما داخله، هي نقوش ساورا ذاتها.. النقوش والرسوم تحكي مسيرة شعب الوادي في البدء والمنتهى، وتتحدث عن خيرات الوادي وطبيعته!

"كيف وجدت هذا الكهف؟! ما أعلمه أنه بعيد مغادرة أسلافنا لمملكة الجبل والوادي انها اختفت وزالت آثارها من الوجود"

"دخلت بدافع الفضول؛ فهو أول ما تقع عيناك عليه.. وأنت تدخل الى الوادي.. ما أن وطأته قدماي حتى تعلق قلبي بالمكان.. منذ الوهلة الأولى تعلق قلبي بالمكان دالي، لكأن حنينا بعيدا يشدني. انها حقا أرض الأسلاف.

نادى سورنق في الناس:

"ليستعد نصفكم للرحيل وليبق النصف الآخر. وتحرك الركب يقوده بييه إلى مملكة ساورا الخراب ليأتي بالباقين من شعبها المهدد بالانقراض.

نزل الركب وانزل الأحمال. وأخذ الجند يبحثون عن كهوف في الجوار وأسفل الجبل أدخلوا الشيوخ والنساء والأطفال إلى الكهوف، وأوقدوا النار عند مداخلها حيث نام الرجال يحرسهم بعض الجند.

في الصباح جمعهم سورنق ووزعهم إلى فرق للعمل. وتحوّل الوادي إلى خلية نحل دائبة الحركة.

كان المعبد الكبير قد اكتمل بناؤه، وشارف قصر آري على الإنتهاء ولم يعد الوادي الموحش هو ذاته. توغلت الحيوانات الضارية في مجاهيل الادغال، ونهض سومنق في أعلى التل، وحقق ساو أحلامه القديمة في تشييد الفاشر حول القصر من الحجر.

كانت حاضرة الوادي أجمل من ساورا المهجورة. كانت تنمو بسرعة مدهشة..

نظف الأهالي الأكمات. نصبوا "دناقل" العسل في الأشجار، وزرعوا الموالح والحبوب والخضروات. ونصبوا معاصر الزيوت والخمر.

أعاد ساو صياغة أحد الكهوف ليصبح مشغلا جميلا. كان يعمل بأزميله في أحد التماثيل الأنثوية، بينما داهمته نبتة. فتوقف عن

عملـه. وضـع التمثـال جانبـا. وأخـذ ينظـر إلى صدرهـا نصـف العـارِّي تلمـظ وهمـس:

"سأنحتك يوما نبتة"

كانت تقف لا مبالية؛ وهي تبتسم في عذوبة:

"لماذا ليس الآن؟!"

مدت يدها تاخذ التمثال؛ الذي كان يعمل فيه:

"انها لنقي"

قالت وهي تقطِّب حاجبيها؛ فرد بهدوء:

"طلب مني سورنق نحتها"

كانـت لنقـي في هيئـة الكبـش، تفتـح زراعيهـا تحتضـن الهـواء. شـعرها ملفـوف في جدائـل صغـيرة تتـدلى عـلى الكتـف، وبـين نهديهـا المتحفزيـن العارِّيـين، تتـدلى حبـات خـرز صُفـت بعنايـة. كان الكنفـوس القطنـي الـذي ترتديـه ينسـحب قليـلا عـن باطـن فخذيهـا، ويبـدو موشـيا.. قطبـت نبتـة حاجبيهـا في غـيرّة.

"يجب أن تنحتني في الحال"

فضحك ساو وهو يقترب منها؛ فاتحا ذراعيه:

"لا تكوني مشاكسة مثل نيرديس؛ الأمر ليس بهذه السهولة"

ادارت وجههـا عنـه؛ وهـي تفلـت نفسـها مـن بـين زراعيـه و أخـذت تقلِّـب بصرهـا في محتويـات مشـغله الصغـير، الـذي نقشـت عـلى جدرانـه تصاويـر تمثـل خـراب سـاورا، ومعابدهـا المهجـورة وزوجـة آري المنتحـرة، وآري يقاتـل ببسـالة واسـتماتة، وفي صـورة أخـرى: إياكـورِّي في كنفوسـها الملـكي، وجسـمها الفـارع تحتضـن بيديهـا؛ رأسـا لكبـش لامـع العينـين.

كانـت راكعـة تحـت قدمـى كبـش، يؤلـف مـع وجـه ابنهـا دالي وحـدة واحـدة.

"مشغلك جميل ساو!"

قالت نبتة في دلال فأجابها في تزلف:

"وأنت بديعة نبتة"

"أنت كاذب"

"كيف؟!"

"أترك نيرديس إن لم تكن كاذبا!"

غيّر ساو مجرى الحديث:

"الم ترى الطبل الذي صنعه كورِّي؟!"

"انه أكبر طبل أراه في حياتي ساو.."

"بييه يقول أن هذا الطبل؛ سيحل محل الطبل المقدس الأكبر"

56

أخـذ النـاس يتوافـدون إلى المملكـة الجديـدة؛ التـي بـرزت الى الوجـود فجـأة. وأخـذت قوافـل الملـح تمـضي وتجـيء، وأنتـشر التجـار مـن شـعب الـوادي (شـعب سـاورا القديمـة) يتاجـرون بمواشـيهم ويسـتثمرون حقولهم بـين الحـدود القبليـة والمهنيـة التـي عـلى الرغـم مـن ثباتهـا، كان مـن السـهل عليهـم النفـاذ منهـا.

فالمزارعـين الناجحـين يسـتثمرون في الماشـية، حتـى يصلـوا الى نقطـة تكـون فيهـا قيمـة ماشـيتهم، أعـلا مـن قيمـة حقولهـم، ولـكي يحمـوا اسـتثماراتهم في الماشـية، يجـب عليهـم عبـور حـدود الجـوار العرقيـة، تاركـين لغتهـم وأسـلوب حياتهـم، ليتخـذوا أسـلوب حيـاة الجـوار، لكونـه الأسـلوب الملائـم لبـداوة الماشـية، تمامـا كـما كان يحـدث في سـاورا البائـدة عـلى حـدود بـداوة الإبـل، حيـث تكـون الضغـوط قوِّية على شـعب سـاورا، الـذي يضطـر للتكيـف مـع قيـم الأبالـة، عندمـا يعـبرون الى حدودهـم.

الجفـاف الـذي أصـاب الأنحـاء المجـاورة للـوادي أضطـر الرُّحـل أن يتوافـدوا عـلى المملكـة الوليـدة. إذ افقدهـم الجفـاف قطعانهـم، وهـدد الوبـاء حياتهـم، فاسـتقروا في مملكـة الـوادي الناميـة، تخلـوا عـن ترحالهم وأصبحـوا مزارعـين، وعندمـا يهتـاج الحنـين إلى حيـاة البـداوة في داخلهـم، يذهبـون في القوافـل ويعـودون، ولكـن يظـل الحنـين هـو الحنـين..

أخـذت المملكـة تزدهـر بسرعـة وتنبـض بالحيـاة، كأنهـا ليسـت تلـك المملكـة، التـي انتـشر فيهـا الوبـاء يومـا وانقسـم أبنـاء سـلطانها الـذي قتلـه الوبـاء إلى ثلاثـة مجموعـات، ضربـت في أنحـاء الأرض. كأنهـا ليسـت هـي تلـك المملكـة التـي درّسـت ذات يـوم!

كانت تنمو بصورة عجيبة وتزدّهر كأنها تخرج من قمقم أزلي!

اجتمع الرّجال الملكيين الذين كانوا يوما مجرد فتيان مغرورين في ساورا البائدة..اجتمعوا في سرِّيّة تامة بكهف ساو قال بييه:

"مضى وقت طويل على سورِّنق وهو يقودنا، ونحن بعد لا نزال بدون آري.. والأمور تمضي كما توقعت نيرديس.. سورنق يخطط لتنصيب نفسه آري. ولن ينتظر دالي.."

تساءل كورِّي:

"ما العمل إذن؟"

رد صولمنج:

"أرى أن نجمع ما تبقى من العشيرة الملكية خلفنا. وبعد أن نضمن وقوف الجميع إلى جانبنا؛ سيضطر سورِّنق للتنحي"

قال بييه بعد تفكير عميق:

"سورِّنق عرف كيف يكسب ثقة شعب ساورا؛ عرِّف كيف يستقطب البدو الرُّحل "الأبالة" الذين لا موطِّن لهم سوى الترحال، ويوطنهم هنا، وجعل حتى الجنجويد يشعرون بالإنتماء إلى هذا المكان. سورِّنق عرف كيف يجعل لا شعب الوادي فحسب يحبه ويخشاه، بل حتى الشعوب الهائمة على وجوهها دون وطن..فهو الذي أنقذ شعب ساورا من الموت المحقق، وهو الذي منح هؤلاء الرجل الهائمة على وجوههم وطنا ليستقروا اخيرا!"

أضاف ساو:

"لا تنسى إضفاءه على نفسه طابعا إلهيا خارقا، لا يقوى بعده أحد على معارضته!

قاطعه بييه في حدّة:

"هل سنتركه يهنأ بالعرش لمجرّد هذه الادعاءات، في الإتصال بدالي

وتلـك التُرهـات التـي يحيـط نفسـه بهـا؟!"

أطرق كورِّي راسه وقال بعد تفكر:

"أرى أن نبدأ بمضايقته بالشائعات"

أضاف صولمنج:

"هـذا جيـد. يجـب أن نضايـق ايضـا هـؤلاء الدُّعـاة والمبشريِّـن، الذيـن فتـح لهـم البـاب عـلى مصراعيـه"

لم تتحـدث الفتيـات الملكيـات أو يعلِّقـن. كـن ينظـرن في صمـت إلى بعضهـن البعـض تـارة، وتـارة أخـرى للرجـال الملكيـين.

نيرّدِيـس هـي الوحيـدة لحظتهـا، التـي انسـحبت بخاطرهـا بعيـدا عـن أحاديـث الرِّجـال، ونظـرات شـبونّة وكـوِّي ونبتـة،

كانـت هائمـة في ذلـك الليـل البهيـم، عندمـا أنسـلّت خلسـة في طرِّيقهـا الى بييـه، الـذي واعدهـا عندمـا ألتقتـه صبـاح اليـوم الـذي سـبق. وصلتـه لاهثـة الأنفـاس! فبادرهـا:

"هل رآك أحد وأنت تخرجين؟!"

"لا، لقـد كنـت حـذِّرة. أنـت تعلـم أن آري يشـدد الحرّاسـة عـلى القصر. فـلا يسـتطيع أحـد الخـروج. تمكنـت مـن الخـروج بأعجوبـة.. إنهـا المـرّة الأولى التـي أفعـل فيهـا هـذا"

"أعر ف"

قـال؛ وسـحبها مـن يدهـا. مضيـا في الـدروب المتعرِّجـة الخاليـة التـي انتهـت بهـما، إلى غرفـة فـوك في أتنّـي.. كانـت نيردِّيـس مـتردِّدة وخائفـة وقلقـة..

"أهدأي نيردِّيس!"

"أحقا ستتزوجني بييه؟!"

"لقد وعدتك بذلك"

"إذن لماذا نمضي متلصِّصين هكذا؟!"

"نيردِّيس؛ لقد اتفقنا أن يبقى امرنا سرا لا يعرِّفه أحد سوانا"

"وشقيقتيّ لنقي ونبتة؟!"

أجابها بحسم:

"لا أحد نيردِّيس. لا أحد.. أنا أريد أن أصبح آري، وأنتِ ستكونين إياكوري. ولنقي لا تريد لنا ذلك"

"لكنك تقول للجميع أنك تريد لنقي؟!"

"كلهم كاذبون"

نفضت نيردِّيس رأسها عن هذه الخواطر المرهقة، التي ظلت تصطرِّع داخلها لسنواتٍ وسنوات..

كانت قد جاءت بالفتيات الملكيات، ليحضرن إجتماع الرّجال الملكيين، من خلف ظهر لنقي. التي كانت تجلس لحظتها إلى سورِّنق، وتنظر في عينيه تداعبها كل الأحلام القدِّيمة لأزمانٍ لم تأتِ بعد..

57

"لقد حققت حلمك سورِّنق.. ماذا عن حُلمُنا؟!"

"حُلمي لم يتحقق بعد. وحُلمُنا تقفين عقبة أمام تحقيقه"

"ألأنني أصر على أن تترك سابا؟"

"إنها أم إبني الوحيد (دالي) وأم إبنتي (كيرا).. كيف أتركها؟!"

"لكنني ملكية. إبنة آري. شقيقة دالي. ولا أحتمل أن تشارِّكني فيك إمرأة أخرى. احتفظ بابنيك وأعد سابا إلى ديارها.."

"ليس لها أحد هناك. لقد جاء أبوها وأمها من جبال الشرق. من البحر البعيد.. نحن الان كل ما لديها!"

"بل قل انك تريدها!"

"اسمعي لنقي. لقد وقفت معي هي ووالدها؛ في وقت كنت فيه بحاجة لمن يقف معي. كنت وحيدا وغريبا!"

واخذ سورِّنق يحكي للنقي ما سمعته منه مرارا وتكرارا؛ عن ذكريات غيابه الطوِّيل. منذ هرب في تلك القافلة، في ذلك الصباح الشاحب، يرافق التاجر الجرهمي!

كان التاجر قد استرعى انتباهه هذا الفتى، الذي ما أن تصل القافلة الى قلب ساورا، حتى يقف أمامها ويحدِّق فيها بعينين تشِّعان ببرِّيقٍ عجيب، فيحدث نفسه: "سآخذه معي ذات يوم!"

كان التاجر يفكر في إبنته الوحيدة، التي تكرّه الإختلاط بالناس، وتعِّيش كالوحوش، دون أصدقاء سوى جنيات الجبل..

أكد العراف:

"سحرتها الجنيات اللائي خرّبن مدينة الحلفاء الكبيرة"

حدّث التاجر نفسه:

"صبِّي غريب مثله، قد يتمكن من إخراجها مما هي فيه"..

كان التاجر الجرهمي، منذ أن هربت زوجته أعجوبة، بعد ان أخذت الكنداكة تؤام سابا معها، وهو لا يفتأ يلتقي العرّاف الهرِّم بين آنٍ وآخر. و الذي كان قد أخبره مرارا، بأنه لن يلتقي أعجوبة مرّةً أخرى، ولن ينجب بعد الكنداكة وسابا، وإن تزوج كل نساءِ الأرض! ولن يتمكن من سابا سوى رجل غريب! موعود بالملك!

في الأيام الأولى. كانت سابا تحضر له الثمار والشواء واللبن دون أن تبادله كلمة. ولم يحاول الاقتراب منها أبدا. إذ كان يريدها أن تشعر تجاهه بالأمان..

كان يحاول أن يبدو أمامها لطيفا وعفيفا وطيبا. فكان سلوكه تجاهها مثل قسماته المرِّيحة، التي لا تشبه قسمات شبان مالحة الموتورِّين. فأخذت سابا تألفه ببطء، وتستمع للأصوات التي يحاول أن يعلمها إياها بإهتمام، وبعد مضي زمن ليس بالقصِّير، أخذت تردد أصواتا مشابهة، كانت قد بدأت تتعلم..

علمها سورِّنق لغة عشيرته الملكية، فمضت تتعلم من كل شيء حولها.. حتى كلام العصافير وأوراق الشجر وحشرات اللّيل..

"أنا سعيد بك سورِّنق"

قال التاجر الجرهمي وهو يُضيف:

"لقد علمت سابا الكثير. لقد أنقذتها من وحدتها ووحشتها.

أذكر الآن حكاية ذلك العرّاف عنها. قال أن شفاءها يتم على يد ملك غريب! ومن صُلبِها يخرج ملوك أشداء. ملوك شعب فريد.. أرغب في الموت وأنا مطمئن عليها معك!"

كان شباب مالحة يحسدون سورِّنق على علاقته بسابا، اذ كانت تمثل حلمهم الكبير، من دون كل الفتيات.. يحلمون بمجرد إبتسامة منها ترِّيح صبواتهم، وتطلِّق لأحلامهم العنان..

منذ طفولتها بينهم، كانت سابا كطلّسمٍ عصِّي البوح.. ما أن يقترب منها أحد حتى تصرعه بعدوانية ليس لها مثيل. كانت تقاتل بقوّة فائقة، كأنها وحش ضار..

ظل سورِّنق يراقبها منذ أيام مجيئه الأولى بصبر وهدؤ، فقد شعر بها كفرس برِّي جامح، يشعل فيه التحدي. كل ما تمناه وقتها، ألا يفسد عليه الشبان الحمقى علاقته المتنامية بها!

لا يزال سورِّنق يذكر، كيف كان شبان مالحة يتحرشون به عن عمد، يقصدون استفزازه ولم يجد أمامه سوى أن يحتملهم بصبر. إلى أن استطاعوا اخراجه عن طورِّه، فأشهر في وجوههم هراوته الحجرية. ضحكوا منه و تحلقوا حوله يشاغلونه من كل اتجاه، إلى أن تمكنوا من تشتيت انتباهه..

فقد تركيزه فحاصروه.. اقتربوا منه.. رفعه أحدهم، وقيد آخر يديه إلى ظهرِّه. هزَّوه من مئذره وأخذوا يضربونه بالهراوات، وهم يضحكون حتى أغمى عليه!

"سأرحل سابا"

نظرت إليه بعمق:

"ألأنني دافعت عنك؟ لقد كانوا أكثر منك سورنق، لو تقدموا إليك إثنين إثنين لصرعتهم. أنا أعرفك و أعرفهم جيدا"

"لا، أعني سأرحل عن هنا ذات يوم"

لم يبد عليها أنها فهمت شيئا، هذه المرّة، فهزت رأسها:

"لـن تسـتطيع. سأرسـل في أثـرك صديقـاتي جنيـات الجبـل. سـيأتين بـك بعـد أن يُثخنّـك بالجـراح. لقـد خرّبـن المدينـة الكبـيرة، فكيـف بضربـك أنـت، سـيكون امـرا ممتعـا لهـن!"

فضحك وقال بخبث:

"لماذا تريديـنّني أن أبقى؟!"

"ستعرِّف ذات يوم"

ولم تضـف شـيئا. أخـذ يجهـد نفسـه في تعليمهـا لغـة قومـه، ولا يتوقـف إلا ليغـوص في ظـلال سـاورا البعيـدة، التـي تداهمـه بوجـه أبيـه المبجـل دورة، و أطيـاف الأقـران والأحبـة!

"سـأرحل عـن هنـا ذات يـوم، لأرى مـا خلـف البحـار البعيـدة والصحـراء"

يقول لأقرانه؛ فيضحكون منه. يؤكد:

"دالي طلب مني الرّحيل"

صبـاح اصطحبـه التاجـر؛ كان قلبـه يتلفـت نحـو سـاورا. لكـن حنينـا أقـوى للمجهـول ظـل يشـدّه. قطعـت القافلـة السباسـب والوِّهـاد، إلى أن وصلـت بعـد قمريـن إلى جبـل الميـدوب، فأناخـت ووضعـت أحمالهـا..

مـضى سـورِّنق مـع التاجـر، الـذي أفـرد لـه بيتـا منحوتـات داخـل كهـف يرتبـط بكهـف سـابا، وكهـوف زوجاتـه عـبر ممـرات معقـدّة.. وجـاءه بسـابا!

"إنها إبنتي سورِّنق. اعتن بها. ربما يكون شفاؤها على يديك"

"هل هي مريضة؟"

"نـوع غريـب مـن المـرض. إذ لا تكلـم أحـد ولا تحـب الاختـلاط بالناس؛

هكـذا هـي منـذ طفولتهـا. إعتزّ بهـا وسـأعلمك كل شيء"

كانـت سـابا بلـونٍّ الطلـح، فارعـة كقمبيلـة. معتدلـة إعتـدال البـان. لم يـرى أجمـل منهـا أبدا..أبـدا.. لا ترتـدي عـلى صلبهـا سـوى كنفـوس جلـد خشـن. اقـترب منهـا سـورّنق، فكـشرّت في وجهـه!

كجنّيـات الودّيـان ترسـل سـابا شـعرها عـلى ظهرهـا، وتـزداد تكشـيرا طيلـة اليـوم. في اليـوم التـالي دخلـت تحمـل اللـبن والثـمار. أكل متغاضيـا عـن بصرّهـا السـاهم، ونظراتهـا المهوّمـة.. قـال لهـا أنـه يريـد الاسـتحمام، وأخـذ يمثلـه بالإشـارات. سـحبته مـن يـده ومضـت بـه، إلى الـوادي خلـف الجبـل. هبطـا الـوادي. أشـارت إلى الأرض فلـم يفهـم شـيا، ركعـت عـلى الأرض وأخـذت تزّيـح الرّمـل بكفيهـا. حفـرت حفـرة صغـيرة، فانـداح المـاء ليمـلأ الحفـرّة ويسـيل. فهـم مقصدّهـا وأخـذ يحفـر الأرض حفـرة واسـعة عميقـة.. خلعـت كنفوسـها وفـك عنـه إزاره وأخـذا يسـتحمان معـا في الـوادي!

"لقد نسيت عهدنا سورّنق"

قالت لنقي بأسى؛ فرد بحزن:

"لم أنسى. لكنها الغربة عن الأهل والوطن"

"لم تعد أنت سورّنق الذي أعرّفه"

كانت لحظتها وصايا إيا كورّي؛ تنساب في خاطرها:

"يجـب أن تحافظـي عـلى مُلـك آري لنقـي. وكانـت لحظـة المواجهـة، التـي ظلـت تتجنبهـا، بمـا يعتمّـل في دخيلتهـا، من أفـكارٍّ متضارّبة ومشـاعر متناقضـة، تشـعلها وصايـا إيـا كـورّي.. وحبهـا اليتيـم وحصّـارات بييـه، الـذي يُـصّر عـلى تصيدّهـا، لإدراكـه أن مشروعيـة الملـك لهـا بعـد دالي وفقـا لتراتبيـة سـاورا الملكيـة، فهـي كـبرى بنـات آري الراحـل.

"توقفي لنقي. لماذا تكرهينني؟!"

"أنا لا أكره أحد"

"قلبك مع سورِّنق؛ وسورِّنق ليس لك. ثقي بي لنقي. أنا لا أريد سواك"

كانت لحظة المواجهة الأولى، بعد غياب سنوات طويلة، وتهرب شهور عديدة. أشدّ إيلاما من الغربة والحنين وانتظار اللقيا وتداع ذكريات الطفولة الضائعة، مع إشعاعات النجوم البعيدة، عندما تهجع كل مساء. تقلِّب ذاكرتها، تجدهما يختبئان في الأكمة البعيدة. هي وسورِّنق. خلف الحقول. يجلسان.. يضحكان في عفوِّية. فتغني لنقي في شجنٍّ عميق، يلِّف الصّمت والأشواق في غلالة من المشاعر الدافئة. تحتوِّي كل عذاب آت. يكتشفان يوما إثر آخر أحاسيسهما، أشياؤهما الخاصة، وشعورهما بعذاب مرتقب. فتمضي أصابع سورِّنق، وأنامل لنقي بعيدا بعيدا.

تدِّب كالنمل. تحفز البوح والشجن، وتشيع الدفء لتصبح تشابكات الأنامل، زادا للذكريات القادمة خلسة، وخلسة يتوتر الجسد المتحفز، يسيل على رمال الوادي الذهبية كحطام اوانِ الفخار عندما يجرفها السيل بعيدا. عميقا في الصحراء التي لا نهاية لها.

"انه الظمأ والحنين سورِّنق"

"لقد قلت وقتها سأتزوجك"

"وأجبت وقتها؛ أننا سنخرِّق العرف"

"لا، اننا لا نخرِّق العرف، فالخالق جعل الناس، منذ البدء ذكرا وأنثى، وقال لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويتحد بزوجته ليصير الاثنان جسدا واحدا، فلماذا يفرق الإنسان ما جمعه الخالق. الإنسان

لأجـل التوحـد في نصفـه الآخـر، لا يـترك أمـه وأبيـه فقـط. يـترك العـرش لنقـي. هـل تدركـين مـا أعنـي؟ يـترك العـرش"

ظل سورِّنق يتحدث بلغته الغريبة؛ عن أحلام وخواطر أكثر غرابة..

"ومـع ذلـك سـأكون آري.. وسـأتزوجك لنقـي.. الرؤيـا التـي أراهـا تقـول ذلـك"

"الرؤيا أم الأفكار الغريبة لأخي دالي؟!"

"دالي يقول انك الوحيدة التي تفهمينه"

"هو أيضا يفهمني"

"لذلك تعتزلان الناس عندما تلتقيان. ماذا عن الرؤيا"

"أرى فتـاة هـي أنـت ولسـت أنـت. فتـاة تشـبهك في كهـف محـاط بدغـل كثيـف. تحـدِّق في طيـف بعيـد. أظنّـه أنـا.. طيـف يحـدّق في العـرش.. عـرش خلـف ظهرِّهـا.."

"ماذا تعنِّي سورِّنق؟"

"بـل مـاذا تعنِّـي الرؤيـا.. العـرّاف يقـول أننـي سـأصبح آري ذات يـوم، بعـد غربـة ورحيـل. لكـن لـن اصبـح آري إلا إذا وجـدت تلـك الفتـاة!"

نظرت إليه في شك:

"ماذا تعني ب إذا وجدتها"

أدرك أنه لا يستطيع خداعها:

"أتحدت بها!"

"أتفعل سورِّنق؟!"

قالـت ونهضـت غاضبـة. أمسـكها مـن يدِّهـا. وهـدأ بالهـا. ولم يعـد

للحديـث عـن تلـك الرؤيـا أبـدا. حـاول جاهـدا أن ينسـيها إياهـا.. أجلسـها عـلى حجـره.. دائمـا يجلسـها عـلى حجـره.. ظهرهـا عـلي صـدرِّه، ويديـه تعبثـان في شـعرها و صدرِّهـا!

"عندما ترحل سورِّنق خذني معك"

"لا لنقي يجب أن تبقى"

58

منـذ أصطحبتـه القافلـة، وذاكرتـه تمتـص كل شيء حولـه: علامـات الطرِّيـق: صـوّى السـاري؛ نجـوم السـماء.. حـارب وأسر.. عُـذِّب وفـرّ مـن الأسر.. وتاجـر.. رأى الأهـوال و الأعاجيـب، وعندمـا عـاد. وجـد صاحبـه التاجـر الجرهمـي قـد مـات، وسـابا أنجبـت لـه طفـلا وسـيما، أسـمته دالي كـما أوصاهـا.

قبـل أن يغـادر مالحـة، بتجارتـه وتجـارة الجرهمـي.. كان التاجـر العجـوز قـد تـرك لسـابا وابنهـا دالي كل شيء: الكتـان والـذُّرة والجـمال والجامـوس والأغنـام.. كل شيء!

"انها لك سورِّنق"

"ستبقى لدالي إلى أن يكبر سابا"

"..."

"ما ذقته في أسر الكنداكة سابا كان شاقا على نفسي"

بعـد أن مـات الجرهمـي، توقـف سـورِّنق عـن السـفر بتجارتـه، وأصبـح يكتفي بإرسـالها مع تجار مالحة، لتأتي له قوافلهم عند عودتها بالخير الوفير.

وينتظـر عـودة القوافـل بنفـاد صـبر وقلـق، ليتعـرف منهـا عـلى أخبـار سـاورا البعيـدة..

وحـوّل سـورِّنق مالحـة مـن مركـز لتجـارة الملـح، إلى حـاضرة شـبيهة بسـاورا المهجـورة.

كان أهـالي مالحـة قـد أوكلـوا لـه مهمـة قيادتهـم، فصـار أشـبه بـآري لمالحـة. لكـن لم يخبـو حنينـه لسـاورا أبـدا!

59

"أحكي لي لنقي كيف حدث ما حدث؟"

"انهـن الجـواري البيضـاوات؛ الـلائي جـئن مـن أقـاصي البحـار.. أحـضرن معهـن لعنـة سـبيهن..

كـن يحـاصرن آري ليـلا ونهـارا.. وهـو بينهـن لا يـكِّل الطِّـراد، ولا يهتـم للملكـة الأم التـي ملّـت وهـي تـذّوِّي شـيئا فشـيئا..

كان النـاس في سـاورا يفعلـون مـا يعـنّ لهـم، ولا يهتمون لأحـد.. بعضهم تخـلى عـن مـيراث الأسـلاف، وأخـذ بمـا يقولـه، أولئـك الملتحـين الأدعيـاء.. الذيـن نهـوا النـاس عـن عبـادة الكبـش.. ودعـاة آخريـن تحدثـوا عـن نبِّـي يدعـوا لخالـق لا يـراه أحـد.."

قاطعها:

"وكيف ترِّين أنت حديثهم هذا؟"

أطرقت برهة:

"انـه أشـبه بمـا كان دالي يزعمـه. لكننـي لم أفكـر في الأمـر فالأسـلاف تركـوا لنـا الكبـش، وهـو عنـدي كل شيء!'

"انه لا يختلف عن القط!"

"كيف؟!"

"هنـاك أمـور لا نسـتطيع إيجـاد إجابـة مبـاشرة لهـا.. هنـاك أمـور تحـدث بسـبب معجـزة مـا؛ بتدبـير قـوى مـا؛ قـوى لا نراهـا؛ تديـر حياتنـا دون أن نراهـا!"

"كان دالي يكرِّر ذلك قبل أن يختفي!"

60

"المهرجانات التي يحدث فيها فعل الأرواح الشرِّيرة، جعلت دالي يبتعِّدْ.. هل تصدِّق سورِّنق كيف أصبحت الحياة في ساورا.. الرِّجال يأتون بعضهم، وكذلك يتبادلون النساء! والنساء يفعلن ذات الشيء مع بعضهن البعض!

الأجنبيات جئن بذلك. دفعن الناس لفعله، فأختفى دالي وأنت، وزّوَّت الملكة الأم التي كانت تحذِّر آري فلا يستجيب.

كانت تتآكل مما حدث حولها؛ حتى أستحال جسدها إلى هيكل! جفَّت في عروقه مياه الحياة، وآري بين جوارِّيه ومحظياته!!..

كان دالي يلِّج عليه المخدّع، فلا يسمع منه ويطرده. يجيئه مرّةً أخرى.. يحتدان فيطرده، فيخرج إلى أن جاءه يوما منعقِّد الجبين، وقبل أن يقول شيئا طرده آري فخرج..

انعقدّت سحابة رمادية في أبهاء القصر! تفتق عنها صوت هاتف:

(سقطت ساورا الجاحدة لرّحمة الخالق. طوبىّ لدالي. طوبىّ للذين يرحلون عن ساورا الجاحدة)

و تكشفت السحابة عن كبش، قرونه تلمع في ضوء الشمس، ووجهه كبرد الشتاء، الذي يتجمع قرب الجبل، أقصى الوادي البعيد!

كان الكبش يشرع قدمين من نار! يحتضن بهما القصر، الذي تسيل على جدرانه الدّمامل، والقروح الخبيثة وتزكم أبهاؤه الروائح النتنة. ثم هدأ كل شيء!

بحثنا عن دالي ولم نجده. كان دالي قد اختفى. قال آري أنها رؤيا دالي التي رأى! حتى المبجل دورة التزم تجاهها الصمت فلم يقل شيئا!

أحتضنته ماريانا:

"لا تهتم؛ انه كابوس. روح شريرة.. وهم بسبب إكثارك من الخمر.. لا شيء!"

وكان معبد التّل يتكشف عن دالي يهتف بالشيوخ يمنعهم من أداء الشعائر للقِّط، وتقدِّيم القرابين الآدمية ويحثهم على الخروج إلى أرض الأسلاف.. يقول:

"مثلما جئتم منها، إليها تعودون .." ..

تنهدت لنقي وهي تسنِّد رأسها، على صدر سورِّنق وتضيف:

"كل هذا حدث في غيابك انت ودالي، وتسبب في دمار ساورا"

"أعرف ذلك كله فقد كنت بينكم، ورأيت كيف ستؤول الامور!"

"دمر الغزاة ساورا"

عندما تناقلت الصحراء والوديان والغابات؛ أخبار خراب ساورا، كان سورِّنق يستفيق من رحلته الطوِّيلّة للتّو، وهو ينظر إلى الصَّبي الصّغير دالي، وهو يلهو مع سابا، ثم يركض خارج الكوخ.

كان سورِّنق وقتها يستفيق للتّو، من قصة هروبه ذات صباح شاحب، في إحدى القوافل المتجهة إلى مالحة مركز تجارة الملح قُرب جبل الميدوب.. قال لسابا:

"سأمضي إلى ساورا.. إنها بحاجة إلى"

"وأنا؟"

"أنت نور عيني اللتين أرى بهما. ما أن يستقِّر بي المقام حتى لآخذك"

حلّت سابا كنفوسها القطني وسألته:

"أتذكر يوم جئت أول مرّة. يوم ضربك شبان مالحة؟!"

"لم أعد ذلك الفتى سابا"

ابتسمت:

"لا تغضب. ما قصدت إغضابك. أعني هنا لديك هذا الصّبي، ولديك ذكرياتك منذ كنت فتّيً غرْ.. كيف تستطيع ترك كل ذلك وتمضي تاركا خلفك حياتك مع عائلتك؟!"

"أنا إبن ساورا في النهاية؛ وهي تحتاجني الآن. انه واجبي"

".. ... ..."

سحبته من يده خارج الكوخ؛ وقادته عبر سلسلة معقدة من الكهوف المتصِّلة، بممرات متعرِّجة.

"إلى أين نمضي؟!"

"إلى كهفي. حيث أستقبلتك أول مرّة"

كانت تقوده وكنفوسها في يدها.

"لماذا؟"

"سأنتظرك ولن أنظر إلى رجل في غيبابك"

دلفا إلى الكهف وهي تسحبه من يده. بحثت في أشياءها. أخذت كنفوسا قديما من الجلد..

"انه ذلك الكنفوس الذي وجدتني عليه! سارتديه الآن وأنت تغادِّر..أتذكره؟!"

ورحلت بذاكرتها الى تلك اللحظة الأولى التي أثارت فيها معه على رمل الوادي إلى أن غابت عن الوعي.. وعندما أفاقت وجدت نفسها لا تزال، مرتدية كنفوسها الجلدي. ومستلقية تحت قمبيلة ظليلة..

نظرت اليه في تردد وتساؤل غامض يطِّلُ من عينيها.. تلمست بين فخذيها في عناية ودِّقة.. فحصت نفسها جيدا وسألته بدهشة:

"لم تفعل شيئا؟"

"لا، لم أفعل شيئا"

"لماذا؟!"

"لانك لا تريدين"

ولأول مرّة تبتسم سابا بهذه العذوبة في وجهه.. في المساء جاءته بلبن كثير؛ وثمار وشواء.. أخذت تلقمه وتحكي له عن الجنِّيات اللائي سحرنها..

أكل سورِّنق كما لم يأكل من قبل.. وشرِّب من كفيها ماء الآنية الفخارية، المعطرّة بالسِّعدَّة ونام.

عندما تسللت أشعة الفجر، الكوات المجهولة في الكهوف. تسحبت سابا. جاءت تحمل آنية ملأى باللبن. أخذت تشاغله حتى صحى. نهض بتكاسل وشرِّب من اللبن حتى أرتوى. مدّت سابا يدها الى مئزره تحاول أن تفك العقدة التي تربطه.

حسر عنه مئزرها.. حلّ كنفوسها.. نهض.. جذبها اليه.. واحتضنها بقوّة..أسندت سابا يديها على جدار الكهف.. وحنّت ظهرها.. باعدت بين ساقيها..

الحمامة في مدخل الكهف حلقت.. حلّقت إلى عشها وهدلت.. ركعت سابا على ركبتيها والعرق يبللها.. كانت كأنها تعود من رحلة بعيدة..

كانت لا تزال تتألم وسورِّنق ينسحب منهكا ومهدودا.. استلقيا على ظهريهما يحدِّقان في سقف الكهف..

وضعت رأسها على كتفه. خيّم عليهما الصّمت. وأصابعهما المتوترة وانفاسهما اللاهثة تهدأ ببطء، والزّبد الذي سال منهما، يخطُّ على الرّمل أحاديث الأولين والآخرين، ويزركِّشها بأُغنيات جنِّيات الجبل..

كانت الشمس قد غربت، عندما ارتدت سابا كنفوس الجلد وخرجت من تلك الذّكرى المتجددة، وهي تنظر لطفلها الصغير دالي الذي بدأ وكأنه يبحث عنهما.. إلتفتت إلى سورِّنق:

"ستجيء بنتا تؤاخِّي هذا الصّبي"

أرعيهما جيدا سابا"

"اهتم لنفسك سورِّنق"

ومضى سورِّنق صّوب ساورا المهجورة، مخلِّفا وراءه سابا والصبي الصّغير دالي، وكيرالتي في رحم الغيب، كيرا التي ربما تولد في جبل الميدوب..

بينما أنشغل شعب الوادي، في ذلك الصّباح النديان باستعدادات الإحتفال البهيج، لإكتمال المملكة الوليدة، التي ألتفت حواضِّرها النامية، حول الجبل الناهض، في قلب الوادي مقسما الأراضي الشاسعة، مترامية الأطراف. إلى مستنقعات وسافنا.. إذا بالجبل المقدس يهتز في عنف. سقطت له القلوب، وبرزت له العيون من محاجرِّها. توقف الناس عن أعمالهم وأخذوا يحدِّقون في بعضهم البعض..

أطلّ سورِّنق من قبة القصر، وهتف في صوت حاول أن يجعله عميقا ومؤثرا:

لا تهتموا. واصلوا أعمالكم..

كان بييه وقتها يجلس إلى نيردِّيس، التي احاطت وجهه بيديها:

"ألم يحن وقت زواجنا بعد؟"

”ليس قبل أن أصبح آري يا نيردِّيس؛ ألا تريدين تحقيق أحلامك كإياكورِّي“

”ولنقِّي“

”أنت تعرفين أنني أريدك أنت. و تعرفين لماذا ألاحقها هي“

”محاربة سورِّنق في كل شيء“

”إذهبي الآن نيردِّيّس قبل أن يفاجئنا أحد.. لم يتبق سوى القلِّيل ثم نعلن عن علاقتنا“

61

خرجت نيردِّيس من كوخ بييه، الذي تنفس الصعداء. كان واثقا أنه لو إنتصّر على سورِّنق، لن تواجهه مشكِّلّة سوى نيرِّيّس، لكنه بحاجة إليها الآن، اكثر من أيُّ وقتٍ مضى!"

نفض عن نفسه غبار التدريب، وخرج الى حيث أجتمع سورِّنق بالكهنة والشيوخ، يتداولون أمور المملكة الوليدّة بينهم.. قال أحد الشيوخ:

"إذا كانت السماء حمراء صافية عند الغروب تقولون: سيكون صحو وإذا كانت السماء حمراء متجهمة في الصباح تقولون: اليوم مطر! انكم تستدِّلون على حالة الطقس من منظّرِ السماءْ. أما علامات الأزمنة فلا تستطيعون الإستدلال عليها؛ حدّق فيه سورِّنق طويلا دون أن يعلِّق، اذ انتقل مباشرة للتأكيد على ضرورّة الاستعدادات للتنصيب!

خرج الكهنة والشيوخ يكلِّمون الاهالي، ويحاولون تهدئة بالهم، ثم مضوا مع الجيش الجنِّيني لإكمال الإستعدادات..

اجتمع سورِّنق بعائلته الصّغيرّة، أحاطها بزراعيه وهو يقول:

"لقد تأخرنا كثيرا لابد أن ننهي هذا الأمر الليلة"

فيمل كان القرع على الطبول يشتد، والأهالي شيئا فشيئا يتجمعون في فناء القصر..

"آخيرا تحققُ حُلمك سورِّنق"

قالت سابا. فنظر الى ابنيه دالي وكيرا، ثم عانق وجهها ببصرِّه:

"حلمي سيحققه ولديّ"

ربت على كتف الفتى وشقيقته؛ وخاصر زوجته وخرج يتقدمهم..

توقفت الطبول حالما اطلّ بوجهه، وأخذ الأهالي ينظرون إليه بإعجاب وهو يمضي لاعتلاء الكركر، ثم انطلقت الطبول مرةً أخرى في إيقاعات حميمة، ما لبثت أن تلاشت في صمتٍ مرعب، عندما اهتز الجبل مرةً أخرى وبعنف أشدّ! أخذ الناس يتمسكون ببعضهم وينظرون إلى بعضهم البعض وأقدامهم قد تسمرّت في رمل الوادي الرطب!

تعالت همهماتهم التي بعثها الفزع والخوف! ولمرّة ثالثة اهتز الجبل، وأنشقّت عنه سحابة بيضاء تحيط بشخص ما. بدت ملامحه ضبابية في رُكّام السّحابة..

كانت السِّحابة تتقدّم باتجاه الإحتفال. حدث هرّج ومرّج. زاد رُعب الناس وخوفهم، فصرّخ فيهم سورِّنق وهو يحاوِّل الإمساك بتلابيب شجاعته:

"لا تجزعوا فتهلكوا! أثبِتوا وتثبتوا حتى تتبينوا الأمر!"

إقتربت السِّحابة من الجمع شقته. كاد الناس يموتون فزعا ورُعبا! لم يكُن أحدهم قادِّرا على إنتزاع قدميه من الأرض، أو ردّ عينيه اللتين شخصتا في السِّحابة كأنهما مسمرتان اليها، أتجهت السحابة صّوب سورِّنق.. وانقشعت ليتبدى عن رُكامها رجل وقور مهيب! شعر الجميع بنظراته تأسرهم. صرّخ سورِّنق في دهشة وترحيب:

"دالي"

أوقفه الرّجل الوقور بإشارة من يده ووضع يدّه اليمنى على كتفه وهو يقول:

"لقد نفذت رغبتي سورِّنق، وها أنا أعطيك المملكة وابارككَ"

أخـرج دالي مـن تلافيـف ثوبـه الكتـان الناصـع البيـاض، كتابـا مـن الجلـد، صُّـفَ بعنّايـة، ومـده لسـورِّنق وهـو يُضيِّـف:

"هنـا تجـد المملكـة المقدسـة، كيـف ولـدت وكيـف يجـب أن تمـضي.. أننـي أعطيـك مملكـة أجـدادي سـورِّنق وابـاركك"

ثـم نظـر دالي إلى الكهنـة والشـيوخ وأشـار لهـم بـأن يتقدمـوا لتتويـج، سـورِّنق. اقتربـوا منـه فأخـرج مـن تلافيفـه عمامـة سـوداء كبـيرة..

انها عظمة العرش..

مدّها لهم وأشـار بأن يضعوها على رأس سـورِّنق بدلا عن تاج الكبش، ثم وضـع يـده عـلى العمامـة التي براس سـورِّنق، وأخـذ يتمتم بكلـمات مبهمة. فتجمعـت السِّـحابة مـرةً أخـرى وأحاطتهـما، تحـولا الى ضبـاب ثـم اختفيـا..

عندمـا أنقشـعت السِّـحابة كان سـورِّنق جالسـا عـلى العـرش وحـده وليـس ثمـة أثـر لـدالي.. كان دالي قـد اختفـى كأنـه لم يمـر مـن هنـا أبـدا!

هتـف بهـم سـورِّنق ان يواصِّلـوا الإحتفـالات وأن يبهجـوا.. في ذلـك اليـوم شـعر الرِّجـال أن طعـم البّقـو مميـزا فـوق العـادة. وأحسـت النسـاء بصفـحٍ وغفـران وهـن ينظـرن للرِّجـال المخمورِّيـن يتحرّشـون بمنابـع الخصـب ومصـدّر الحيـاة..

رقصّـت الفتيـات كـما لم يرقصـن مـن قبـل، وأحـس الشـيوخ والكهنـة للإحتفـال طعـم خـاص فارقـوه منـذ وقـت طويـل، يدهمهـم الآن بـكل مـا تتبـدى عـن الذّاكـرّة مـن حنـين..

وعندمـا توقـف النـاس عـن الرقـص والغنـاء، تحـدث سـورِّنق عـن مجـد سـاورا المهجـورة، وخطاياهـا وخرابهـا وتكلـم بإسـهاب عـن الممالـك الناميـة في الجـوار، والتـي قـد تحسـد شـعب الـوادي يومـا عـلى ازدِّهـار مملكتـه، فتُسـيِّر الجيـوش..

اليـوم أكمـل دالي هيـكل المملكـة المقدسـة، مملكـة الجبـل والـوادي، التـي أنشـأها في ظـلام الجبـل. واليـوم أعلِـن لكـم رغبتـي في الـزواج مـن لنقِّـي شـقيقة دالي العظيـم في مهرجـان تجليـد النِّحـاس القـادم، ليكتمِّـل إحتفالنـا بإكتـمال تدريـب الجيـش والـزواج مـن إيابـاسي لنقِّـي!

خيـم عـلى القـصر صمـت مهيـب منـذ أخـترق السـهم المسـموم فـؤاد سـورِّنق، فـأرداه وتآمـر الكهنـة والشـيوخ مـع بييـه فزوجـوا لنقِّـي منـه قـسرا. مضـت تلـك الأفـراح التـي تخلِّفهـا المهرجانـات البهيجـة، ولم يعـد لنسـيم الـوادي ذلـك البـوح العطِّـر والدّفـاق الرّيـان بالحنـين..

فمنـذ سـقط دالي طرِّيـح الفـراش شُـلّت حركـة الـوادي، كـما لم تشِّـل لحظـة اخـتراق السـهم مجهـول المصـدر للجمـوع الغفـيرّة واسـتقراره في فـؤاد سـورِّنق، مسـاء الإحتفـال بتجليـد النحـاس!

كانـت لنقـي جـواره مزهولـة؛ لا تصـدِّق مـا تـراه. تحـدِّق عينيهـا في الـلاشيء. فـكل شيء بـدا أمامهـا كحلـم قصـير متوهـج لم يلبـث أن إنطفـأ..

قـال دالي ابـن سـورنق يخاطـب شـقيقته، وهـو يحـاول أن يرفـع رأسـه قليـلا:

"يبدو أنهم قد دسوا لي السُّم كيرا"

"العـرّاف قـال أن الترياق الـذي تناولتـه سيشـفيك.. لا تخـشى شـيئا دالي. ستشـفى!"

ابتسم في وهن:

"لا تمنِّـي نفسُـك الأمـاني كـيرا. لقـد قـضى الأمـر إنهـا أيامـي الآخـيرّة. لحظـاتي الآخـيرّة ربمـا.."

دمعـت عينـا كـيرا بغـزارة.. هـا هـو دالي يحتـضر الآن بـين يديهـا، مثلـما أحتـضر والدهـا سـورِّنق بـين زراعيهـا مـن قبـل، ومـن قبـل العجـوز دورّة..

كانت تدرُّك أن العشِّيرّة الملكية لن تتركهم وشأنهم يهنأون بحياتهم، فكثيرا ما كان سورِّنق يقول:

"أنتما إبني سابا الغريبة عن هذِّه الدِّيار، لن يتركوكما فأحذرا"

ولم تمضِّ سوى سنوات معدودات على اكتمال المملكة وأنتشار تعاليم دالي التي حلّت محل شعائر الكبش حتى قُتِلْ سورِّنقْ..

وقتها بحث الحرّس السلطاني والجند، يقودهم بييه عن مشتبه يتهمونه. قلبوا الارض أعلاها أسفلها ولم يتركوا حجرا لم يسألوه. ونتفوا حتى لحاء الأشجار بحثا عن أثر، ولم يتركوا كهفا لم يبحثوا فيه حتى أحال بحثهم المسعور حياة العشيرة الملكية إلى شقاءٍ وضجر! وبعد كل ذلك لم يتمكنوا من العثور على مجرد أثر يشفي الغليل.

كان دالي قد باشر مهام والده سورِّنقْ بعد الدفن مباشرة، إذ أُجريت له طقوس التنصيب بسرعة وقرّر الكهنة، أن يراجع دالي القائد المخضرم بييه في كل صغيرّة وكبيرّة من شئون المملكة الناهضة!

كان دالي قد أدرك منذ الوهلة الأولى أن العشيرة الملكية تخطط لسحب البساط من تحته؛ لتنفرِّد بحكم المملكة النامية دونه.. قبل إجراءِ طقوسِ التنصيب نصّحته شقيقته كيرا:

"لقد تآمروا على قتل والدنا آري سورنق يا دالي. وسيتآمرون عليك. سيبدأون بفرض بييه عليك بحجة صِّغر سنك. يجب أن نجد مخرجا بعد انقضاء هذه الأحزان التي ستظل فينا ما بقى الدّهر"

حتى الآن لا تدري كيرا لماذا اصبح سولونق إبن الراعي العجوز يخطر على ذهنِّها كثيرا، خارجا من قلب أحزانها.. كان وجهه يطل ممزقا أغشية الأسى واللوعة، تستردها ملامحه الى فترة الصِّبا الباكر، عندما كانت تدربه هي ودالي.. قال دالي:

”أنت تحبينه“

فتأوهت ولم ترد..

62

كان المزارعين والرُّعاة وهم في طرِّيقهم الى مساكنهم في السّحر، الذي سبق أُمسية التنصيب، قد سمعوا صوت منادٍ في البرِّية يهتف بهم ان توقفوا.. كان المنادي يغطي جسده بثوبٍ من الكِّتان، ويحمل في يده اليمنى عصاة محنية، لا تخلو من التعرجات..هتف بهم:

"يا ابناء الزُّناة؛ كيف تجرأون على ارتكاب المعصِّية وتقتلون آري غيلة وغدرا.. آريكم الذي ابدلكم بساورا الهالكة مملكة الوادي اليانعة.. كيف جرؤتم.. كيف؟!"

أُصيب المزارعين بالرعب فتراجعوا، مزعورِّين يرتدون على اعقابهم، وهتفوا بالناس حتى تجمعوا فيهم، ليستمعوا الى حكايتهم..

أصبح هؤلاء المزارعين والرُّعاة هم كهنة المعابد الجديدة، التي شرع دالي في بناءها بمجرد أن خلف والده سورِّنق.. كان الواحد من هؤلاء الكهنة ما أن يقف وسط الجموع، حتى ينطلِّق لسانه ليأتي بحديث الأولين والآخرين، كأن ثمة من يُملِّي عليه ما يقول..

صدقهم البعض والتفوا حولهم يتجولون مغهم في حواضر المملكة.. وكذّبهم آخرون كُثُر.. فكانوا عندما يجتمعون بدالي، يسكنون إلى تطييبه خواطرهم ويقول:

"لقد ارتبط الناس بعبادة آلهة الأسلاف منذ وقتٍ بعيد ويصعُب عليهم أن يُغيروا ما أَلِفوه في لحظةٍ واحدة. أرفقوا بهم وأصبِروا عليهم ولا تيأسوا.."

وصبر كهنة المعابد الجديدة على الأذى، الذي أخذ يزداد بمرور الأيام. وبين آنٍ وآخر كان دالي يدعوهم، يتفاكرويتذاكر معهم التعاليم! ويعطيهم صفحات من كتاب دالي لينشروها بين الناس!

"ليس ثمة جدوى، ما لم تكن هذه التعاليم متماهية في كل شيء يحكم المملكة!"

قال أحد الدُّعاة؛ فسأل دالي:

"ماذا تعني بالضبط؟!"

"يجب أن يُنشّر كتاب دالي في الجيش ويعمل به القضاة كقانون. ويجب أن يكون لك أنت نفسك مجلسا دائما دالي، تجتمع إليه وتستشيره في كل شيء من شئون المملكة.."

انني أجتمع بالشيوخ والكهنة؛ كلما تعقدّت الأمور، مثلما يفعل كل آري.."

"يجب ان يكون المجلس ثابتا، وليس كلما تعقدت الأمور.. مجلس يعبِّر عن المملكة كلِّها وليس عن أفكار العشيرّة الملكية والكهنة وحدهم.."

وأصرّ دالي على تجذر تعاليم دالي في الجيش الذي لا يزال جنينيا بعد. كما أخذ يقرِّن تعيين الشرتايات؛ بمدى تشبعهم بكتاب دالي، فاخذ لا يُنَّصِّب أحدهم في منصّب شرتاي أو خلافه، إلا بعد تأكُدِّهِ من التشرُّب بتعاليم دالي..

وانتشر الكهنة والشيوخ يعلمون الاطفال الحروف، في أوقاتِ إضافية غير تلك الأوقات التي كانوا يقضونها في سومنق..

وعاد الاستقرار شيئا فشيئا إلى نفوس الأهالي التي جعلها ذلك السهم مضطربة خائفة مما هو آتٍ..

وبدأ الحزن يخف شيئا فشيئا.. يغادر دواخل الناس ونفوسهم، التي احبت آري الراحل سورِّنقْ وقدرته كما تقدر وريثه دالي الان..

استطاع دالي بمساعدة كيرا وبعض الكهنة والشيوخ الصادقين، توحيد الناس في فترة وجيزة. فلم يستطع بييه الذي لم يعد يقوى على إخفاء

تذمره، الإنفراد بالحكم وتنفيذ ما ظل يخطط له لوقتٍ طويل..

أخذ عدد القوافل التي ترتاد المملكة النامية يزداد عن كل مرةٍ سبقت، ومع هذه القوافل كان يأتي أولئك الملتحين الذين كانوا يجيئون إلى ساورا المهجورة في أواخر أيامها وينذرون أهلها، ويبشرونهم بفجر جديد..

انتشر المبشرون والدعاة الغرباء، يتحدثون عن الكنداكة التي تملِّك البحر والساحل والسهل وكيف تخدِّم بإخلاصٍ في مملكة الرّب وملكوته وتغترِّف من مجدِّه، فتحقق الإنتصارات العظيمة..

تحدثوا عن عذابات إبن الإنسان وهو يقود الناس إلى الخلاص، حاملا عنهم خطاياهم وإنتكارهم ونكرانهم وجحودِّهم، الذي جبلوا عليه ومع ذلك صُلِّب لأجلِهِم، كي يتحققوا في المسرّةِ والسلام..

أصبح الناس يختلفون عما كانوا عليه في الماضي، فمنذ نشّط دالي في نشر تعاليم دالي العظيم، حتى أختفت تلك اللامبالاة، وأخذوا يستمعون باهتمام لكل شيء، ثم يمضون في طريقهم هادئي البال أو يتبعون طرقا مختلفة تفضي لدربٍ من النّور..

لكن لم يشأ أعداء المملكة النامية أن يستمر هذا الحال، اذ كان بييه الذي اضاف تفصيلات جديدة لخططه بعد أن حذف تفصيلات أخرى، لتتمخض بشائر خطته الجديدة فيما صنعه من جيش يخصه وحده داخل الجيش الجنينِّي للمملكة النامية.. وسومنق داخل سومنق المملكة الأساسي.. وهكذا.. فبييه كان قد تمكن من شراء عددا لا يستهان به من الشيوخ والكهنة الموالين لدالي. كما اصبح لديه عددا مقدرا من المبشرِّين والُّدعاة الذين أستمالهم لبعث شرِّيعة القط والكبش من جديد!

واستمال بييه من عبيد القصر الملكي وخصيانه، بعض الذين تضاءل دورهم داخل القصر عقب تولي دالي لزمام الأمور..

كان بييه يعمل بهدؤ في ظلامٍ معتم لا يراه فيه أحد، مستعينا بالجواري والمحظيات والنساء الملكيات اللائي تقودهن له نيردِّيس، مستعينة بأقران بييه من الشيوخ الملكيين: كورِّي، صولمنج وساو الذين لم يروقهم أبدا مسار الامور في المملكة الجديدة.. التي بقدر ما تنمو يوما بعد آخر؛ بقدر ما يتضاءل فيها نفوذ العشيرة المالكة لساورا الهالكة.. ويندفن في أعماق الماضي السحيق. اذ لم يبق من مجد ساورا المهجورة، سوى أصداء لذكريات عائلية منصرِّمة. أصداء بين جنبات القصر المهدّم لأري الراحل، أو بين جنبات أتني التي تتوسط ما أطلق عليه يوما "ساورا الجميلة" وتلك المشاوير الحميمة في السهول وبين الكهوف، مع الفتيات الملكِّيات، اللائي تعلمن من الجواري البيض الفنون الساحرة في العلاقة بالرجال..

فوجيء دالي ببييه يحكم قبضته على كل شيء فجأة، ويتعمد معارضته في كل أمر. أدرك لحظتها أن بييه أستغل انشغاله بتكرِّيس النظام والحق والعدل فنخر عميقا في جسم المملكة. وما أن يحين موعد المجلس حتى يجد دالي نفسه موضع اتهامات مثل كل مرة من قبل العشيرة الملكية وبعض الكهنة والشيوخ الذين طلبوا منه أن يتزوج لنقي إبنة آري الذي استمات في الدّفاع عن ساورا وسقط قتيلا لأجل إرث الأجداد!

"لكنها كانت ستصبح زوجة لأبي. لا يحق لي ذلك!"

قال أحد الشيوخ من أتباع بييه:

"لا دالي. أنت تريد أن تغير حياتنا وقبل ذلك تريد أن تقضي على ورثة العرش جميعهم"

"أختاروا لي اي فتاة اخرى"

كان دالي قد ادرك فداحة الفخ الذي نصبه له بييه، وشعر بأن

تلك هي الايام الآخيرّة لسلطة سورِّنق، عندما دخل عليه بعض الجند يقودهم بييه على حين غرّة وأخذوه مقيدا، حيث حبسوه في حجرة تحت الارض..

استتب الأمر لبييه الذي عمل على تعجيل زواجه من لنقي وتشديد قبضته على مملكة الوادي.

أعاد بييه الناس قسرا الى عبادة الكبش بعد أن نكّل بكل الذي تخلوا عن عبادته، وأتبعوا ديانات الدّعاة وديانة دالي التي أحضرها في كتاب الجلد عندما فاجأ الناس يوم تنصيب سورِّنق..

حبس بييه بعض الدعاة والمبشرِّين الغرباء في حجرات تحت الأرض. وطرد بعضهم من مملكة الوادي. واعتقل كل الذين علم بتذمرهم من أهالي الوادي، وأودعهم حجرات مظلمة تحت الأرض..

كانت سابا وكيرا وقتها تزوران جبل الميدوب مستودّع الذِّكريات الحميمة، ولا تعلمان بما يجري في غيابهم، عندما رغبت سابا في العودة خالفتها كيرا الرأي فقد كانت تعلم من جنياتها بما يحدث في مملكة الوادي، وأقنعتها بالمكوث لفترةٍ أطول في مالحة إلى أن تهدأ الأوضاع التي لم تكن لدى كيرا فكرة عنها.

كانت سابا متوجسة وقلقة على إبنها دالي رغم التطمينات التي بذلتها الجنيات، وكانت تعلم أن تلك بداية النهاية لمرحلة فاصلة في حياة مملكة الوادي.

"لا أدري ما الذي يقلقك سابا. منذ غادرنا الوادي وأنت متوجسة"

كانت سابا مهمومة بتدعيم دعائم حكم دالي خليفة سورِّنقْ، وكانت مشتاقة لاداء آخر دور في حياة ابنيها قبل أن تغادر إلى مملكة الجنيات صديقاتها لتستريح ما تبقى لها من ايام حياتها التي بدأت تشعر بدنو أجلِّها..

أصرّت سابا على الرّحيل، بعد أن أقنعت كيرا بالبقاء في مالحة، كانت تنتابها رغبة قوية تجبرها على العودة، فرافقتها كيرا حتى خارج مالحة، حيث يبدأ درب الأربعين..

قالت كيرا قبل ان تودِّع سابا:

"سأبقى لبعض الوقت لأكمل تدريباتي كما اتفقنا"

"هذا المكان حميم اليك؟"

"كنت اتدرب فيه مع دالي؛ قبل رحيلنا الى مملكة الوادي"

ومضت سابا برفقة العبيد والخصيان وبعض الجواري صوب مملكة الوادي، وما أن وصلت حتى ألقي عليها القبض، واودعت إحدى الحجرات الحجرية في القصر الملكي.. عندما حاولت صديقاتها جنيات الجبل التدخل منعتهن:

أنني انفذ مشيئة أعجوبة. ستبقى مملكة سورِّنق في دالي والكيرا.. أحفادي وسورِّنقْ سينتصرون. وهذه هي معركتنا الأخيرة لإستقامة الأمر. ما كان كان وما تمّ تم.

ذهبت جنيات الجبل لرعاية كيرا وهن يوعزن في أنفسهن امرا أخفينه عن سابا..

مضى على سابا أكثر من قمر وهي ملقاة في حجرتها، يطل عليها فقط وجه بييه بين آنٍ وآخر، تلمع في عينيه الشهوة المغموسة في الخيانة والغدر..

"الا تقبلين بي زوجا سابا؟"

"لا زوج لي بعد سورِّنق"

"ألا تريدين الخلاص من السجن"

”كنـت أعـرف أننـي سأسـجن منـذ وقـت بعيـد. وأعـرف أننـي سـأهزمك“

ضحك بييه ضحكة مجلجلة وخرج.

أجـرت سـابا طقـوس الاتصـال بصديقاتهـا جنِّيـات الجبـل، اطلعتهـم عـلى خطتهـا فتشـكلوا كأهـالي الـوادي واخـذوا يحمسـون النـاس للثـورّة، في ذات الوقـت كانـت قرينـة سـابا تمـرِّر جسـدها مـن كـوّة الحجـرّة وتدلّـت مـن نافـذة حجرتهـا، كان النـاس الذيـن جمعتهـم الجنِّيـان دهشـن الى حـد الزهـول، وهـم ينظـرون اليهـا تمـرِّر نفسـها مـن النافـذة، ثـم تسـقط مـن هـذا العلـو الشـاهق.. تهـوِّي وتهـوِّي قلوبهـم معهـا، في ذات هـذه اللحظـة كانـت جنيـات الجبـل قـد اخـذن سـابا الى مدخـل المملكـة، يخبئنهـا في كـوخ احـد الرّعـاة المخلصّـين لملـك سـورِّنق،الذي كان احـد كهنـة المعابـد الجديـدة التـي دمرهـا بييـه..

كان النـاس ينظـرون في رعـب وفـزع متنازعـين بـين الهلّـع والخـوف والدهشـة.. غاصـت الأرض بقرينـة سـابا، تحلـق النـاس حـول المـكان الـذي هـوّت فيـه، وبـداوا يهمهمـون. تبـدى المـكان عـن رهـد تسـبح فيـه خيـول لم يشـاهدوا مثلهـا مـن قبـل..

كانـت الخيـول تسـبح في الرّهـد المغطـى بالـدم.. وشـعر سـابا قـد انتـشر عليـه ممتزجـا في ذيـول الخيـل وأعرافهـا..

هتـف أحدهـم منتزعـا النـاس مـن دهشـتهم.. هتـف آخـر أختفـى الرهـد والخيـول وجثـة سـابا ومـضى النـاس في هتافهـم يجوبـون دروب وشـوارع مملكـة الـوادي مدفوعـين بقـوّة غريبـة، فجـرّت كل الغضـب المحبـوس في دواخلهـم منـذ مقتـل سـورِّنق.. كانـت الثـورّة قـد انطلقـت..

كانـت سـابا تـدرِّك أن وجودهـا بعـد مقتـل سـورِّنقْ يثـير حفيظـة العشـيرّة الملكيـة، ويجعـل شـعب الـوادي متنازعـا بـين ولاءيـن، لكـن في

واقـع الامـر كان شـعب الـوادي يعـاني شـعورا غريبـا مزيـج مـن الحـزن والأسى والغضــب المســتعِّر.

فانبثـاق رهـد الخيـول في المـكان الـذي مـادت فيـه الأرض تحـت جسـد سـابا، شـحنّهم بمشـاعر شـتى ليـس كمثلهـا الا تلـك المشـاعر عنـد تنصيـب سـورِّنق وإطلالـة دالي حامـلا كتابـه الجلـد، والعمامـة السـوداء، لتنصيـب سـورِّنق بنفسـه.. كانـوا كمـن يفيـق مـن ظـلام طويـل.. ويمـضي في طريـق مفـروش بشـوك الهشـاب والطلـح والقتـاد..

سرّت الهتافـات سريـان النـار في الهشـيم وتمـددت الثـورة، وانتـشرت الشـائعات التـي تضخِّـم الجراحـات التـي لا تنمحـي منـذ مقتـل سـورِّنقْ واعتقـال دالي وحبـس الاهـالي والمبشريـن والدعـاة.. تمـدد في النـاس روح جديـدة.. روح غاضـب دواماتـه آخـذة في الاتسـاع لا يقـوى كل جنـد بييـه عـلى السـيطرة عـلى مدياتهـا. سـقط القتـلى. سـقط الجرحـى. وظـل النـاس يتقدمـون وغضبهـم يـزداد إثـر كل قتيـل أو جريـح اسـتعارا .

تيار الحياة في المملكة تغيّر، كجبل يلقى على نهرٍ جار..

في ذات هـذا الوقـت كانـت جنِّيـات الجبـل قـد أعـددن كـيرا للزحـف عـلى المملكـة، بعـد ان اخبرنهـا بـكل مـا جـرى ويجـري..

تهيـات كـيرا عـلى رأس جيـش مـن العبيـد والخصيـان المدربـين عـلى القتـال ومضـوا، الى ان وصلـوا مدخـل المملكـة حيـث كـوخ الراعـي، الـذي اختبـأت عنـده سـابا. كان الكـوخ خاليـا. والراعـي وابنـه الوحيـد سـولونق منشـغلين بتهييـج الشـعب وإطـلاق سراح دالي وكل الذيـن سـجنهم بييـه، بعـد ان انفلتـت الامـور تمامـا إثـر معرِّفـة جنـد بييـه وأعوانـه بإقتحـام كـيرا للملكـة في مقدمـة جيـش جـرار.

بحـث جنـد كـيرا عـن بييـه الـذي كانـت همتـه قـد تضعضعـت وانتابته المخـاوف، وقتهـا كان سـولونق الـذي يقـود الأهـالي وجيشـها الـذي تقـوده

قـد سـيطروا عـلى كل شيء! وتمكـن سـولونق مـن قتـل بييه؛ وحطـم الأهالي وجيـش الكـيرا أبـواب الصنوبـر التـي أغلقـت بهـا الحجـرات الحجريـة، التـي حبـس فيهـا بييـه النـاس.

كانـت نيردِّيـس ايضـا قـد نشـطت، تطلِّـق سراح كل الذيـن حبسـهم بييـه، وتـدِّل الاهـالي والجنـد عـلى أماكـن الحجـرات الخفيـة في أنحـاء متفرِّقـة مـن المملكـة. وتعبـيء النـاس ضـد العشـيرة الملكيـة. كانـت نيرِّيـس تنتقـم لنفسـها مـن بييـه الـذي باعهـا في سـبيل الحصـول عـلى السـلطة ولتقِّـي..

هدأت أحوال المملكة شيئا فشيئا وحمل الناس دالي على أكتافهم..

انتصـار كـيرا في معركتهـا الأولى أعـاد إلى ذهنهـا حاجتهـا لفتاهـا الـذي ظـل فؤادهـا يخفـق كلـما رأتـه في ذلـك الصبـا النـائي.. فتاهـا سـولونق الـذي أنتـزع سـيفها مـن يدهـا بعـد ان أكملـت تدريبـه بنفسـها.. كانـت تـدرك ان الايـام القادمـات تحمـل مـا تحمـل، فتشـعل الحاجـة والذكـرى البعيـدة لسـولونق وهـو يلتقـط السـيف قبـل أن يقـع عـلى الأرض. ففغرت فاهـا دهشـة واختـل توازنهـا عـلى صهـوة الجـواد.

فالتقطها سولونق كالرِّيشة قبل أن تصّل إلى الإرض..

تلـك أيـام الشـجن تتجـدد مـن الذكريـات القديمـة.. لحظتهـا أنفجـر دالى ضاحـكا عليهـما وهـو يراقبهـما مـن أعـلا التـل، وهمـس في أذن كونجو شـقيقة سـولونق، وهـو يشـير بيـدِّه تجاههـما..

لا تـزال كـيرا حتـى الآن تشـعر بأنفـاس سـولونق اللاهثـة تسـكنها. لا تـزال تشـعر بذراعيـه القويتـين تطوقانهـا وحضـوره داخلهـا يقـوى.. عندمـا حكّـت لسـابا في ذلـك الوقـت أجابتهـا:

انه رجلك..

ولم تأخذ إجابة سابا مأخذ الجد. الآن الإحساس بالأخطار المتنامية وفقد الأحبة والوقوف على مفترق الطرق، كل ذلك يجدد حضور سورنق أكثر من أي وقت مضى.. حضورّه داخلها. داخلها الذي لم تدرِّك هشاشته من قبل بقدر ما تدركه الآن.. منذ أن وقعت عيناها على سولونق وهو يقود ثورة الناس لأجل عرش دالي..

حكم دالي والكيرا شعب الوادي بهدؤ وتؤدة، وبعد عشرات السنين لم يعد لحكايات (الجدات) موضوع سوى دالي الذي تحدث بحديث الأولين والآخرين، وكيرا التي استطاعت أن تمضي بشعب الوادي إلى تميزه، مستعينة بأهل البلد وأهلِّها في جبل الميدوب، وتؤامي دالي من كونجو وجنيات الجبل صديقات أمها..

كان سولونق أخطر سلاطين الظِّل الذين مروا على تاريخ الكيرا "شعب الوادي"؛ فهو الذي دفع بساورا لترأس فئة الحدادين تلك الفئة المحتقرّة، التي تأكل الخبز، فتلاشى خطره على مملكة الكيرا الى الأبد.

عيّن سولونق والده توقوينق وعيّن كورِّي شرتايا على كوبي، وجعل من صولمنج سامبي وفرّق ما تبقى من سلطة ساورا الهالكة في أصقاع الوادي الواسعة بعيدا عن القصر الملكي!

ظلّت كيرا تعامل شعبها بألوهية. خاصة بعد أن انفتق عن المكان الذي هوّت فيه سابا؛ ذلك الرّهد السِّحرِّي الذي أشاع عنه الناس أنه فعل جنِّيات الجبل..

63

كانت توأمي دالي من كونجو، يبديان مقدرات غريبة منذ طفولتهما، فعندما تتأخر مواعيد المطر، يصعدان أعلا التّل الذي يواجه جبل الكبش، في زاوية القصر الشرقية، يتجمع الناس ليروا فعلهما يرفع التوأم أيديهم نحو السماء و يغيبان في صمت عميق. ثم لا يلبث جسديهما يتوتران وتتقلص أعصابهما وتنبسط. تبرز العروق النابضة على جبينهما، تتجمع سحابة وتنعقد عند قمة جبل الكبش، ثم تنبسط على الوادي..

مبارزة الكيرا الشهيرة وسطوة سولونق ورهد الخيل ومطر التؤام كل ذلك جعل شعب الوادي يستسلم لقيادة كيرا بطيب خاطر، حتى أنها عندما نفت العجوز نيردِّيس إلى ساورا المهجورة لم يجرؤ احد على فتح فمه!

عندما أخبر سورِّنق سابا بحزنه على لنقِّي التي لا تريد أن ترى ما يراه، مضت اليها سابا وظلت تلازمها الى أن جاءت بموافقتها

"كيف تمكنت من ذلك سابا؟"

قال سورِّنق، فأجابت:

"ساعدتني جنِّيات الجبل"

احتضنها بحب كبير:

"لكنني لن أحضر زفافك اليها، سامضي مع كيرا الى جبل الميدوب"

قدّر سورِّنق ما فعلته سابا لأجله تقديرا كبيرا:

افعلي ما يحلو لك سابا، ايتها الجنِّية خذِّي معك سارِّنقا وكوتنقو"

كان أزدهـار الـوادي حديـث النـاس في أرجـاء البـلاد الكبـيرة، فنشـط سـاو الـذي صـار شـيخا عـلى مضـض مـع البناءيـن يصممـون فـواشرا جديـدة للجيـش المتنامـي الـذي تـم تنظِّيفـه مـن أتبـاع بييـه والعشـيرّة الملكيـة، وكونـت كـيرا بمسـاعدة سـولونق قـوّة خاصـة ضارِّبـة يقودهـا العبيـد والخصيـان وبعـض الحـراس الذيـن تثـق بهـم، وقالـت:

سـتمضون في مهمـة مقدسـة تفتحـون الجـوار وتحكمونـه كـما أحكـم هـذا الشـعب. تصنعـون هنـاك مـا صنعنـاه هنـا. وتحكمونـه باسـمي"

كان البنـاؤون كلـما أكملـوا بنـاء أحـد الفـواشر الجديـدة حتـى تعمـر بالسـكان الذيـن يفـدون مـن وادي النيـل وواحـات الصحـراء الخارجـة بعيـدا عـن جبـل العيـون ومـن حيـث تهـب ريـاح الشـمال والجنـوب..

"اسـمعي كـيرا. أريـد أن أتـزوج لكـن ليـس قبـل أن تتزوجـي أنـت.. لقـد جـاء الغربـاء بكـثرة إلى الـوادي وعـما قريـب سـيصبحون اكـبر عـددا مـن شـعب الـوادي، سـيختلطون بشـعب الـوادي ولـن يحـول بينهـم وبـين العـرش شيء. يجـب ان لا يبقـى العـرش في السـورِّنق"

"أتذكر ذلك الفتى الذي دربناه في صبانا؟"

"سولونق الذي قاد ثورة استرداد عرش سورنق. نعم اذكره"

"هو.. شقيق كونجو"

"انه فتىً شجاع، ومخلص للسورنق؛ عجلا بالزواج"

"وأنت"

"سأتزوج كونجو"

كان دالي جالسـا عـلى عرشـه عندمـا دخلـت كونجـو ابنـة الكاهـن الكبـير بصحبـة والدهـا.. جلسـا في حضرتـه.. تسـآل دالي، فأجابـه الكاهـن:

"انهـا كونجـو. أصرّت كالعـادة عـلى المجـيء لتطمئن عليك قبـل أن تنام"

ابتسم دالي في حنو وطأطأت كونجو رأسها ذات الطأطأة التي كان يراها عليها؛ وهما يجلسان على الربوّة، أعلى التل يتفرجان على مبارزة سولونق وكيرا.

"هل تشعرِّين بما أشعر به كونجو"

قال دالي في ذلك المساء البعيد. فلم تجب. أخذت يده بيدها، ووضعتها على صدرها ثم قبلته بعذوبة.

أخذ السم يسري في جسد دالي، وينتشِّر ورأسه على حجر الكيرا، يحيط بكل زراع تؤاميه الصغيرين، ومضت الى حجرتها باكية. وكيرا الفارعة كامها صارت شاحبة وبدا الشيب يظهر في شعر رأسها!

الأحزان التي تتابعت وقتها لم تترك لقلبها فرصة للوجيب البهيج. تتالت الأحزان منذ جاء دورة في صباحٍ بعيد؛ مغبرا من وعثاء السفر والحنين العميق الى احفاد لم يرهم؛ عرفوا فيه ملامح سورنق الحبيب الغائب، كما رسمته سابا في ذاكرتهم الصّلدة كجبل الميدوب، وشدوا معه الرِّحال صوب الوادي، الى مملكة سورنق، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى توفى العجوز دورة أثناء تعبده..

كانت الكيرا قد جلست بمحاذاته عندما غاب متضرعا في دعاء حزين. فاضت الدموع الغزيرة من عينيه الوادعتين، ثم ما لبث أن اتكأ في حضن حفيدته الصغيرة. وأخذ يدها في كفه الواسعة، رابتا عليها بحنو:

"أسمعيني جيدا كيرا؛ من صُلبك يجيء سلاطين هذا الشعب. ستدهمكم المآسي وتحاصركم الأحزان؛ وتدهمكم الآلآم كجيوش غازية.. لكن كل ذلك يعجِّن روحكم ولا يفِّت عضد أجسادكم.. فلا تضعفي"

كان الكاهن دورّة لحظتها يلفظ أنفاسه الأخيرة. انطبع كلامه الذي لم تفهمه وقتها في ذاكرتها، واصبح يتكرر كلما أختلّت الى نفسها، أو

جلست تعيده على آري سورنق الذي يجيبها في حنان:

"نعم كيرا؛ العشيرة الملكية من بقايا ساورا لن يتركوك ولن يتركوا دالي، فالحذّر الحذر"

"كيف.. انت ألست منهم؟"

"إنما أنا ابن راعٍ عجوز من عامة الشعب"

"ولنقّي الا تتزوجان؟!"

"انها لا تريد"

كان سورِّنق يخشى على كيرا من كل شيء حولها؛ دائم الإرتياب. فلا يدعها تخرج مع قريناتها فآثار الظلام الذي جعل القلوب تقيح والأفئدة تسيل صديدا في ساورا المهجورة، تلقي بظلالها على شعب الوادي!

"خذها دالي إلى عمق الوادي. علِّمها ما علمتك إياه سابا ووالدها. علمها كيف تقاتل كرجل وكيف تمتطي الخيل"

"غدروا بك سورنق"

قال دالي في حزن، بينما كيرا تسجيه وتتكيء رأسه على حجرِّها.. جلس دالي الى يساره متلقفا الصوت الواهن، الذي يخرج من اعماق سورِّنق:

"لا تدعهم يغدرون بك أو بشقيقتك"

"ستتعافى آري سورِّنق"

ربت سورِّنقْ على يد دالي:

أنت الآن شاب وكيرا صبية. لقد تعلمتما الكثير وتعرِّفان ما لا يعرِّفه أقرانكم. لا يوجد أحد مثلكما في المملكة. تذكرا ذلك دائما!

ولم تمض أيام معدودة حتى أعلن الوادي الحداد متشحا بالحزن والسواد والإحباط. صباح دفن سورِّنقْ في المقابر الجديدة، إكفهرّت السماء، واستحال لون أوراق الشجر الى صُفرّة شاحبة.

غردت الطيور في أشجار القمبيل الشاهقة بغناء حزين، ردّدت صداه الجبال، وفراغ الوادي الذي خيّمت عليه اللوعة والأسى

وما أن انتهى الدفن حتى برقت البروق وأرعدت السماء وهطلت الأمطار لثلاثة أيام متتالية، دون أن تتوقف ساعة واحدة، تغير لون رمال الوادي إلى تربة داكنة، متقطعة وخالط المياه شيء من طعم الدموع.

اجتمع الكهنة والشيوخ ونصبوا دالي آري على المملكة، وأبقوا على بييه قائدا لجيشها الجنِّينِّي ومستشارا له!

64

التجارب المريرة التي مرا بها، تجعله وشقيقته كيرا أكثر حذرا من أيّ وقت مضى في التعامل مع العشيرة الملكية المتبقية من ساورا الهالكة. وأشدّ حذرا من الناس والشيوخ والكهنة الذين من لم يتآمر منهم كف عن الوقوف الى جانبهم مكتفيا بالفرجة على الوقائع والأحداث المأساوية التي بدأت بإغتيال سورِّنق وسجن دالي وانتحار سابا!

لم يعد دالي يثق بأحد ونشأ لديه اعتقاد بان الخلاص في تطبيق شرِّيعة دالي بحذافيرها على شعب الوادي؛ وجعل كل شيء ينشأ مستمدا منها. وما ان شرع دالي في تنفيذ هذه الفكرّة، غاضا الطرف عن إستفزازات لنقِّي المتكرِّرة حتى نشِط ما تبقى من العشيرة الملكية في الجانب الآخر فارسلهم في جيش الفتح للجوار.

وظل يخطط لشعبه ناشرا تعاليم سورِّنق. تعاليم دالي العظيم، بحرصٍ شديد!

"دسوا لي السُّم كيرا، انه السُّم يجب ان تنهضي بشئوون المملكة، لم تعودي الآن إيا باسي فحسب، بل آري هذه المملكة المجيدة"

"ستشفى دالي وتنهض بشؤون المملكة من جديد.. ستشفى"

كانت كيرا تحاول تمالك نفسها، وطمأنته، لكنها كانت تدرك ان دالي الآن يمضي في الطرِّيق الذي مضى فيه دورة وسورِّنق وسابا من قبل.

كانت إيا باسي كيرا جالسة على الككّر وقد التف حولها الشيوخ والكهنة مطرقين لصمتها المهيب، وهي تجوس في داخلها بين تلافيف

مـاضٍ شرختـه الأحـزان وخطّـت عليـه المـآسي بصماتهـا..

كرّر الشيخ صولمنج:

"أنه العرف كيرا.. لم تحكمنا امرأة من قبل"

"بل حكمت"

"لابد أن تتزوجي"

"لقد تحدثنا في هذا الأمر كثيرا"

"نحن الآن أكثر إصرارا. فقد تركناك وقتا كافيا لتقرِّري وحدك"

أطرقت كيرا وفكرّت في عمق:

"سأتزوج لكن على طريقتي وبشروطي"

"ماذا تعنين؟!"

"في مهرجـان الحصـاد سـأنازل الفرسـان ومـن يهزمنـي يكـون هـو زوجـي"

"وإذا لم يهزمك أحد من الفرسان؟"

"يفتح النزال لعامة الشعب وللجميع حتى الغرباء!"

"حتى لو كان من يرغبون في نزالك العبيد والخصيان؟"

"نعم"

"يبدو أنك تخططين لأمر ما"

"ماذا تعني؟"

"سـألتيني مـن قبـل عـن ذلـك الفتـى سـولونق وأخـشى أن تهزميـه في النـزال؟"

"إنـه فـارس وقـد قـاد ثـورة اسـترداد العـرش مـن قبـل كـما أنـه شـقيق حبيبتـك كونجـو"

"انه فتىً شجاع؛ ومخلص للسورنق، عجلا بالزواج"

"ليس قبل أن يهزمني"

ابتسم في وجهها؛ وهو يهمهم:

"نعم.. بالطبع!"

هـزّ الشـيخ صولمنـج رأسـه في دهشـة وقلّـب النظـر في وجـوه الشـيوخ الذيـن لم يخفـوا إسـتياءهم. ثـم قـال بعـد تـردد طـال:

"لك ذلك"

دار بخلـد الشـيوخ والكهنـة مـا دار بخلـد صولمنـج في تلـك اللحظـة. إذ كانـوا يشـعرون أن إيابـاسي كـيرا تخبـيء شـيئا مـا خلـف كلامهـا. شيء لا يدركونـه الآن، فهـي منـذ جلسـت عـلى العـرش وحدهـا، وتتكشـف كل يـوم عـن خبـث ودهـاء لا حـدود لهـما.

تصـوروا في البـدء أنهـا سـتكون طيعـة في ايديهـم، وسـتمضي كـما يشـتهون، لكـن مـع الأيـام بـدت كـيرا أشـد صرامـة مـن أبيهـا سـورنق، وأكـثر حنكـة مـن شـقيقها دالي.

لم تستسـلم أبـدا لإرادتهـم في تزويجهـا لمـن يختارونـه. كانـت تُـصِّر في كل مـرّة عـلى الرفـض عندمـا يعـرض أحدهـم عليهـا الـزواج. وعندمـا أشـتدّت شـوكة أولئـك المبـشرون والدعـاة مـن جديـد، وأخـذوا يعيـدون الحديـث القديـم عـن نبـي آخـر ظهـر في مـشرِّق الشـمس، نبـي لا يبحـث عـن ارض ميعـاد ولا يتحـدث عـن حملـه لخطايـا البـشر الذيـن عليهـم وحدهـم ان يتحملـوا مسـئولية خطاياهـم واخطائهـم، فتحـت البـاب واسـعا أمامهـم، وشـغلّت الكهنـة والشـيوخ بمجادلتهـم!

أعلـن المنـادي أن كـيرا سـتختار زوجهـا في مهرجـان الحصـاد، فأنتظـر شـعب المملكـة بصـبر نافـد حلـول موعـد المهرجـان وهـو يشـعر بالزمـن يمـضي بطيئـا جـدا، حتـى بـدت الضحـوّة الواحـدة لكانهـا ليلتـين وقمـر، والنهـار لكأنـه خريـف كامـل، أو بعـض شـتاء.. لم يكـن سريـان الزمـن كـما ألفـوا دائمـا.

حلـت مواعيـد المهرجـان ونازلـت الكـيرا كل فرسـان المملكـة وهزمتهـم واحـدا تلـو الآخـر، وهـي تهتـف إثـر كل نـزال:

"هل من منازل؟"

إنتهى الجزء الثاني من ثلاثية لا وطن في الحنين

يليه الجزء الثالث:

تجاعيد ذاكرة البنجوس

أحمد ضحية

كوستي- القاهرة- الإسكندرية

2006-97